نفائس الفلسفة الغربية

مديرها الدكتور عثمان أمين

أفلاطون

تأليف

أوجست دييس

تعريب

محمد اسماعيل

الشركة العالمية للنشر والتوزيع
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

نبذة عن المؤلف

أوجست ديس

ولد أوجست ديس ببلدة مانس بفرنسا عام ١٨٧٥ وتلقى تعليمه بالمدارس الدينية ، ودرس الفلسفة وأصبح أستاذاً لها بالكليات الكاثوليكية بغربى فرنسا . وقف المؤلف جهوده على دراسة أفلاطون وفلسفته وآثاره حتى أصبح حجة فى هذا الباب . وتعتبر المحاورات والمؤلفات التى حققها ونشرها مصادر يوثق بها ويعتمد عليها . فقد نشر كتابه « تعريف الموجود وطبيعة المثل فى محاورة السوفسطائى لأفلاطون » La définition de l'être et la nautre des idées dans le Sophsite de Platon (طبع الكان عام ١٩٠٩) . كما نشر فى نفس العام كتاب « الدورة الصوفية » Le Cycle Mystique (طبعة الكان) . ونشر من محاورات أفلاطون « برمنيدس » سنة ١٩٢٣ و « تيتاوس » سنة ١٩٢٤ و « السوفسطائى » سنة ١٩٢٥ وقد ظهرت كلها فى مجموعة جيوم بوديه . ثم نشر فى عام ١٩٢٧ مؤلفاً ضخماً فى جزءين عن أفلاطون أسماه « حول أفلاطون » Autour de Platon . أما الكتاب الذى ترجمته فقد نشره عام ١٩٣٠ ضمن مجموعة من الكتب ألفها كبار المؤلفين وأصدرتها إحدى دور النشر الفرنسية تحت عنوان « فطاحل المفكرين » Les grands coeurs . وقد ساهم الأب أوجست ديس فى مجموعة البحوث

التى نشرها بول تانرى بعنوان « تاريخ العلم الهيلينى » Paul Tannery pour l'histoire de la science hellénique (انظر الطبعة الثانية باريس سنة ١٩٣٠) . ثم نشر مقدمة لجمهورية أفلاطون قدم بها للترجمة الفرنسية التى أنجزها الأستاذ شامبرى Chambry (مجموعة جيوم بوديه سنة ١٩٣٣) كما أعد الطبعة الثانية لكتابه « تعريف الموجود الخ . . » (مكتبة جوتيه فلار سنة ١٩٣٢) . وقد تولت إخراج هذه الكتب جميعاً كبريات دور النشر الفرنسية .

هذا وكنت أود أن يخرج هذا الكتاب مصدراً بنبذة عن حياة المؤلف ومقدمة خاصة بالطبعة العربية يكتبهما أوجست ديس نفسه ، فأرسلت إليه فى يناير الماضى أستأذنه فى النشر وأطلب منه ذلك ، ولكن وللأسف الشديد لم يصلنى رد حتى الآن ، وأرجو أن يكون المانع خيراً ؟

المعرب

ابريل سنة ١٩٤٧

البيئـــة العقلية

١ — المراض

إلى الطريق المار خارج السور وعلى مقربة من الباب المستور حيث تقوم نافورة بانوپ ، يخرج الأطفال من المراض زرافات . الشمس قد جنحت للغروب ، والمعلمون يسوقونهم أمامهم بإشارات تنم عن اللهفة والقلق ، وفى أصواتهم من البحة والزجر ، وفى ألسنتهم من الثقل مايزيد من حوشية اليونانية التى يدندنون بها . وهؤلاء هم الأطفال يخالس بعضهم بعضاً النظر ، خافضى الرأس كتماناً لضحكاتهم . إنهم يعلمون حق العلم بأن عبيدهم المسنين قد شربوا اليوم فى أعياد هرمس . وهم يغذون السير مع ذلك ، يتبعهم صبية يكبرونهم يتحدثون ويجادلون فى حرارة ، وفتيان وشبان يتوسطهم رجال هنا وهناك .

ها هو ذا البهو الداخلى ، حيث تمارس التمرينات الرياضية ، قد خلا من رواده . ولكن جماعات من الرجال والشباب لا تزال هناك تحت الأروقة ، وثمة عبارات مسهبة تقرع الأسماع كأنها ضوضاء ذات انسجام ، تنتفخ وتعلو تارة أو تتمطى تارة أخرى ، ويقطعها التصفيق بين الفينة والفينة ، وحيناً تكون جملاً قصيرة تتصادم وتتقارع حادة كالسيوف ، مثيرة هتافات حماسية وعواصف من الضحك . منظر وايم الله ، قد استهوى نفوس الفتيان اليوافع

الذين انسلوا متدافعين وسط صفوف المستمعين ، ناسين الساعات وهى تمر ، مردّدين فيما بينهم ، أسماء من اختلبوا حب استطلاعهم .

وهناك جمع من السفسطائيين الغرباء ، أتوا كعادتهم ليدلوا بعلمهم وبلاغتهم أمام الآثنيين . فهذا الرجل الذى يبدو كالمحموم، ذو الصوت الخفيض والإشارات التعليمية الدقيقة هو العالم بروديكوس المولود فى إيوليس ، بجزيرة خيوس ، وهى مدينة قريبة جداً ، وما أكثر ماحظيت مراضات أثينا بزياراته . أما هذا الآخر ، الرافل فى أثواب زاهية ، ذو المنطقة الذهبية الذى يتململ كى يلفت إليه الأنظار ، فهو هيبياس من مدينة إيليس ، هيبياس الجميل ، الذى يشيد البعض بتبحره فى الرياضيات ؛ ولكنه هو يتباهى بأنه يعلم كل شىء ويعلّم كل شىء . إن فيه لحيلاء فاضحة ساذجة ، وجلافة فلاح ، تحول ادعاءه ضحكاً يثير المرح فى جمهوره الشاب .

وهناك غريبان آخران يبدو أنهما يتناوبان إرهاق فتى بالأسئلة ، والفتى مضطرب لا يحسن كتمان غيظه . وقد جلس إلى جانبهما رجل قصير القامة بدين أصلع أقنى الأنف ذو عينين شزراوين تعرفه المراض بأسرها ، لأنه أليف فى كل الأماكن التى يؤمها الشباب ، وهو أحد الآثنيين النُدُر الذين لا يزاولون من الصباح حتى المساء غير هذه المهنة ، مهنة السفسطة . إنه سقراط ، من مقاطعة «ألوبيس» . وهواليوم فى صحبة رجلين لم يعد الناس يراهما معه كثيراً منذ حين . لم يتجاوز أحدهما الثلاثين ، هادئ فى جلسته . والآخر يكبره جسماً وسنًّا وله نظرة حادة شامخة ، وتراه ينهض بين حين وآخر فى

حركة مفاجئة وكأنه متأهب لاستجواب الشخصين دفاعاً عن الفتى الذى يرهقانه بأسئلتهما . ولكن سقراط يشير إشارة تهدئة ليمنع تدخله ، بينما يشجع الفتى الثابت الجنان فى هدوء ورقة . فيحمر الفتى خجلاً فى أول الأمر ثم يستعيد هدوءه فى شىء من الجهد ، وفى نظرة باسمة إلى سقراط يلتفت إلى السفسطائيين ، متهيئاً لتلقى السؤال الخادع الذى سيلقيه الواحد أو الآخر .

أما صاحبا سقراط فهما خرميدس وإفريتياس ، من أقرباء أفلاطون الصبى الذى انسل بين المجتمعين ، ووقف مستنداً إلى كاهل خرميدس ، مظهراً سروراً لا حد له مما يشاهد فى هذا المنظر الهائج . وكم من مرة تملى بمثل هذه المناظر ، وخاصة منذ أن خرج عن ولاية معلّمه وأُذن له فى أن يتجوّل مستطلعاً حول المراض ، بعد وثب أو سباق أو ملاكمة ، تحت إشراف أحد اخوته أو خاله خرميدس ، فى أكثر الأحايين . وقد مدت سنته الثانية أو الثالثة عشرة من أعضائه وقسماته ، ولو أنها قد أبقت على نظرته الصافية ودهشاته العذبة ، وحب استطلاعه المتأهب دائماً المتجدد أبداً ، شأن الطفولة .

كل شىء لا يزال عنده لهواً : فى السوق ، مناظر خيال الظل ومفاتن الساحر وتهاويله ؛ وفى الشارع ، صرخات العامة ونداءاتهم ، واختلاف الألوان وضجيج الإشارات ، والحمير السفهاء التى تسير قدماً مصطدمة بكرام الناس ؛ وفى الملاعب ، الجو المثير الذى يبدو فى التمرينات وفى الأجسام الشابة الممتدة كجسمه فى جهد لذيذ ، والتوقيعات المنسجمة المواقف والحركات ، ثم التراخى والأحاديث والضحكات ، على هيئة جماعات ، بين شبان يوافع ، أو منظر معركة

خطابية أو جدلية ، ولكنه لم ير حتى الآن من كل هذه المعارك العلمية إلا ظاهرها ، غير أن بعض الألفاظ قد أثار فى نفسه أصداء ، كما أن هذه المعركة الكلامية تصير أحياناً حادة لدرجة أنه يشاهدها ويتابعها فى لهفة وجد ، وكأنها معركة حقيقية . وقد قربت الساعة التى سيعلم فيها ما لهذه المعارك الفكرية من أهمية حيوية : أليس ابناً من أبناء أثينا التى تعالج فيها السياسة فى وضح النهار ، وتظل ممتزجة بالهواء الذى يستنشقه أهلها ، كما أن أسرته من أعرق وأمجد مابها من أسر ؟ لقد كانت السياسة دائماً بالنسبة إلى جميع عشيرته ما هى صائرة إليه الآن بالنسبة إلى كل مواطن حر ، أعنى رسالته الفطرية الأولى ، والنشاط الوحيد الذى يُسمَح له بنشدانه .

٢ — الأسرة والمدرسة

ولد أفلاطون عام ٤٢٧ فى عهد ديوتيمُس وكان لايزال فى مستهل الطفولة حينما توفى والده اريستون ابن أورستِكليس تاركاً وراءه اثنين آخرين يكبران أفلاطون وهما اديمنتس واغلوقون وفتاة تدعى فوتونى . أما والدته افريقطونى فقد وفقت إلى الظفر بزوج عاشت فى كنفه ، ألا وهو قريبها بيريلامبُس صاحب الطيور الذى ارتفع إلى الشهرة بفضل ما كان يقوم به من سفارات ، وكذلك بفضل الطواويس التى حصل عليها أثناء مقامه ببلاط ملك الفرس . هذا ما أحاط طفولته من مجد حاضر وماض لأسرته من أمه . وأغلب الظن أنه قد ترامى إلى سمعه ذلك النسب الشهير الذى تبادلت فيه أسرة دوروبيد وأسرة

اقريتياس التزاوج منذ قرون خلت وليس من شك فى أن رأس الفتى طالما اختلطت فيه الأصلاب .

ومهما يكن من شأن افتخاره بعلمه أنه منذ مائتى سنة على الأقل لم يتخلف أسلافه عن أعلى المراتب ، فلم تكن ولاية أمثال دروبيد فى منتصف القرن السابع أو ولاية اقريتياس حوالى القرن السادس لتعتبر أوضح ما سجلته ذاكرته . فقد اهتز قلبه الفتى بذكريات أخرى : إذ خلد سولون الشهير ، أحد أقربائه وصديق دروبيد القديم ، مفاخر العائلة فى أشعاره . وبقى الشاعر المرح انكريون صاحب حظوة فى بلاط هيباريخوس بفضل صلته الطيبة بأحد أفراد أسرة اقريتياس أو بفضل سخاء هذا الطاغية والذى كان أحد أجداد أفلاطون إذ كان جداً لأمه افريقطونى كما كان فى الوقت نفسه جداً لصديقيه وحاميه اقرتياس وخرميدس .

وما إن انتهى أفلاطون من حضانة النساء له حتى انتقل بطبيعة الحال كجميع الأطفال من أمثاله إلى رعاية عبد مسن كان يقوده إلى المدرسة . وقد تعلّم أولاً كيف يحسن هندامه ويجلس وينهض ويمشى معتدلاً ، وكيف يتغنى بأناشيد وُضعت تمجيداً لمدينته . ثم تلقن من بعد الكتابة ومارس القراءة بطريقة الإنشاد على الدوام أو بمحاولة تتبُّع ورسم الحروف التى خطها مؤدبه على اللوحة وقد وضعها على ركبتيه خطًّا عليها بقلمه . واستطاع من بعد أن يكتب ما يملى عليه من قصائد كبار الشعراء وأن يسمع شروحها وأن يحفظها عن ظهر قلب فرأى مائلة أمام عينه تلك المملكة الساحرة حيث كانت تنبثق فى كل خطوة

مفاتن جديدة . كانت أولا المعارك التى دارت حول اليون ، ومغامرات اليوسوس وحكمته الدائمة، فأنساب الآلهة المسيطرين على السماء ثم الريف والبحر والأيام الصالحة للبذر والرياح المساعدة للإبحار قرب الساحل إبحاراً مثمراً وجزاء العمل وثمار العدل الطيبة . وبعد أشعار هوميروس وهزيود تأتى مراثى سولون العذبة ، أو جمل تيوجنيس الميغارى اللاذعة . وفى هـذا الجو من الحكمة الإلهية والحقيقة الإنسانية تفتحت وقويت نفسه . وثمة أساتذة آخرون علموه القيثارة والمزهر ، وأولع قلبه بأناشيد تيرتى العسكرية بينما كان يتعلّم كيف يشكل مواقفه وإشاراته حسب التوقيعات العذبة للألحان والرقص ، وكيف يهب جسمه مرونة بواسطة تمرينات المراض .

وكان كلما تقدم فى طور البلوغ وجد أساتذته الحقيقيين خارج المدرسـة . وأول هؤلاء خاله خرميدس وابن عمه اقريتياس . أما خرميدس فكان من شأن طبيعته الهادئة وما طُبِع عليه من تحفظ ألا تتاح له غير الأدوار الثانوية . وكان له بمثابة الصديق الصدوق الذى يستعين به كما يستعين بخير طبيعى فى غير تحفظ ولا التفات . وقد استطاع أن يُحكِم الرأى فيه فيما بعد : إذ هيأت له التجربة تقدير هـذه الحكمة المترددة شيئاً التى سنجدها لديه من بعـد فى تلطيفه من حدة المخاطرات البالغة حد الجرأة دون أن يخفف من حدة إخلاصه. ولكن أى سحر وروعة كانت لشخصية قوية جبارة كشخصية اقريتياس فى نفس هذا الطفل ذى العقل الحاد ، والخيال الجامح ، والرغبات التى لا تعرف بطبعها حداً ولا نهاية . كان لاقريتياس القديم صديق انكريون ، ولدان هما

كاليسكروس واغلوقون أما صاحبنا اقريتياس ابن كاليسكروس فقد كان يكبر كلاً من خرميدس وافريقطونى أبناء اغلوقون قرابة عشر سنوات . وقد تولى وصاية خرميدس الذى ظل له تابعاً مخلصاً على الدوام معجباً به أبداً . وكان كاليسكروس مفرطاً فى الثراء فتمكّن ولده فى سن مبكرة من أن يختلط بالشباب الزاهر الذى أدهش أثينا ، كما جلب إليها العار ، تحت لواء القبيادس الجميل . ولم يكن اقريتياس مجرد صديق لهو لالقبيادس إنما جعلت منه نبالته نداً لابن أخى بركليس (القبيادس) . وإن لم يكن على نفس القدر من المرونة أو الجاذبية الفذة التى أحبتها أثينا حيناً ونقمت عليها حيناً آخر . فإن روحه كانت مشتعلة كروح القبيادس . وكان حب استطلاعه العقلى أعمق وأشد صلابة .

تتبّع كل منهما دروس سقراط ودروس السفسطائيين ولكن القبيادس الذى تفتحت أمامه سبل الحكم من تلقاء نفسها هرول خلالها بكل جوارحه ، ولم يطلب من بلاغة العصر وفلسفته إلا القدر الذى يكمل به قدرته الفطرية فى التأثير على الناس . أما اقريتياس فقد عض على ناجذيه من غير شك ولكنه شغل أوقات فراغه فى الاستزادة من العلم ، وفى التحضير فى أعماله الأدبية كذلك . فرافق جورجياس الليونتيومى أستاذه فى الخطابة إبان مقامه بتساليا وأفاد من مقامه هنالك فدرس نظام تلك البلاد السياسى . وعنى كذلك بدراسة دساتير اسبرطه وأثينا دراسة مقارنة . هذا ، ولم تصرفه عنايته بالسياسة عن مطامحه الأدبية إذ كان الأدب نفسه من جهة أخرى منبراً بالنسبة إليه .

فكان له أسلوب كبار الأساتذة ، أسلوب سلس واضح وإن لم يخلُ من حدة في الوقت المناسب . كان يتحدث به دون اضطراب ، في لغة بسيطة متزنة ، لغة المجتمعات الراقية ، عن الأشياء التي تعد على درجة كبيرة من الخطورة . لقد عرف كيف ينظم المرائي ويؤلف المآسي التي كان ينطق فيها شخصيات لا تقل قدرة على التفكير عن شخصيات يوروبيدس ، بأفكار العصر وآماله ، مما جعل الناس في المجتمع ينظرون إليه كمفكر ؛ فتردد عليه السفسطائيون والشعراء مزهوين بأن يجدوا في هذا الفتى النبيل الطموح السخي تلميذاً أحرى من أن يكون منافساً . ولقد تدلَّل افلاطون على خاله خرميدس ، ولكن اقريتياس الذي كان يعلم كل شيء والذي كان أليفاً حيث حل ، والذي أكد وحكم في حماس المتلهف الشهوة التواقة إلى القوة ، والذي اقترب بحمية وقوة من سحر الأدب الجميل ومن الشعر (أقول كان اقريتياس) له رائداً وأستاذاً إبان عهد المراهقة .

٣ — السفسطائيون

تلك المراهقة التي لم يعوزها أحد من المعلمين . فها هم من أطلق عليهم عندئذ اسم السفسطائيين أو الحكماء قد تنافسوا في عرض أنفسهم على جمهورهم الفتي هناك حيث لا يشكّون في وجوده ملتئماً أعني في المراضات وفي الملاعب . فكانوا يختاطون في مجتمع الهواة والأقارب أو الأصدقاء ينتهزون أقل مناقشة ليبسطوا علمهم وحذقهم فيبدأون بحصار الناضجين من زبائنهم موقنين من

إحراز دعاية مثمرة من وراء ذلك . وحالما يبدو الشبان يشيدون بنبوغهم ويسألون عن أسمائهم وعن أسرهم ويجدون دائماً الفرصة لاجتذاب انتباه البعض منهم ويسوقونهم إلى الحديث ويستدرجونهم بوعود خلابة . وقد يهرعون إلى هنالك أحيانا يتبعهم موكب مختلف المهابة يتألف من طلبتهم المنتظمين . فيتجولون فى الأروقة أو يتابعون وهم جلوس وسط حلقة من المعجبين خطبة براقة أو مناقشة حارة لا تخلو من أن يشترك فيها عدد لا بأس به من أيفاع محبي الاستطلاع . ثم يأتى اليوم إن عاجلاً وإن آجلاً وقد أصبح هؤلاء المتطلعون المتواترون طلاباً منتظمين . يألفون فى هـذه الأثناء وجوه مشاهير السفسطائيين ويعتادون طرائقهم فيتناقشون حول قيمة كل ويقلدون حركاتهم وعباراتهم المشهورة . ويتذاكرون فيما بينهم الأثمان التى وضعها هؤلاء الأساتذة المرغوب فيهم قيمة لدروسهم ، ويرددون أسماء زملائهم بالأمس أولئك الفتية الذين أسعدهم الحظ والجاه بالاختلاف إليهم . ويعودون من المراض إلى المنازل وقد امتلأ كل منهم بهذه الضجة فيحيطون آباءهم بأخبارهم ولجاجهم . فتمسى المدينه وقد اهتزت بالحماسة التى أثارها التعليم الجديد .

انبثق هذا التعليم طبيعيًا بحكم الضرورات التى أوجدها ظهور الديموقراطية فى المدن اليونانية وخصوصاً انتصارها النهائى فى أثينا . فالتربيـة القديمة التى كونت من انتصروا فى مراثون وبلاتيه بدت قاصرة يوم لاحظ كل فرد أنه لكى يصبح واليًا أو قائداً أو لكى يظفر بأية سلطة كائنة ما كانت أو يحتفظ بها كان لابد له أن يعرف كيف يكتسب ثقة الشعب المسيطر عن طريق

ذلك الذى لعله أن يكون المغرى دائماً لكل الجماهير والذى كان شديد الأغراء بالنسبة إلى الجمهور اليونانى على وجه الخصوص : أعنى الكلام الرنان البارع. فلم يكن مغنياً فى هذا الصدد أن يكون المرء قد تعلم حسن اللهجة وطيب الخلق وشيئاً من النحو أو أن يكون قد عرف أعمال فطاحل الشعراء من حكمة عميقة وعبارات دقيقة إنما كان الواجب أن يكون فى مقدوره الكلام فى كل حين وعن كل موضوع أمام قضاه شديدى التأثر . ولعل الخصم أن يكون قد ظفر بهم من قبل أو على الأقل قد حاول منذ قليل أن يستولى عليهم ليجذبهم إلى جانبه . فكان من الواجب عليه إذن أن يكون قد حصّل معارف متنوعه وأن يجعل فى متناول يده بوجه خاص خزانة من الحجج توصل إلى جميع الغايات وأن يكون له من حضور البديهة ما يمكنه من استثمارها بأن يكيفها تبعاً للظروف وتبعاً للجمهور. أما الأساتذة الذين كانت تتطالبهم الظروف فقد كانوا يتقدمون بأنفسهم .

وُجد دائماً منذ عهد هوميروس وهيزيود وإكسينوفان منشدون أو مغنون متجولون يسمون أنفسهم الشعراء المنشدون يفدون على قصور الملوك والطغاة . ثم أخذوا يذهبون فيما بعد إلى أسواق المدن التواضعة فى أيونيا أو اليونان أو صقلية يرتلون أشعارهم أو يرددون الروائع الكلاسيكية . أما المتأخرون من أحفاد هؤلاء الشعراء فلم يحسنوا التسلح لمواجهة سيطرة النثر وربما كان مآل ذكرهم إلى الزوال بغير رجعة لو لم يستدعِهم خاصة الواقع المؤلم للمشاحنات السياسية والاجتماعية إلى الحياة ثانياً وإلى الازدهار فى ثوب

محاضرين جائلين وأساتذة أحرار للخطابة . فعادوا يجوبون المدن اليونانية ينقبون عن المجد والثروة مثلهم فى ذلك مثل أسلافهم . ولكن أيّاً ما كان المكان الذى أتوا منه ، سواء أكانوا من تساليا أو من إيطاليا الجنوبية أو كانوا من صقلية وإيليس وأولمبيا أو من ديلف فإنهم قد عمموا جميعاً شطر أثينا ـ « المحبة بطبعها للخطب الزاخرة بالكلام » ، إذ كانت تنطق بلغة سلسلة واضحة أصلح ماتكون لأن تصبح لغة متوسطة بين اللهجات اليونانية الأخرى قابلة دون مشقة لأن تتكيّف تبعاً لجميع دقائق التفكير ووفقاً لكل حدة فى الأفعال . كانت أثينا أيضاً فى أوج علوها حوالى منتصف القرن الخامس وقد كفل التوازن الذى وصلت إليه الحكومة الشعبية وقتئذ الحماية والحرية على السواء لكل القوى المجددة . إلى هنالك ذهب سنة ٤٤٤ بروتاغوراس، هذا السفسطائى البارز من مدينة إبديرا فى تراقيا ونعم بالحظوة لدى بركليس الذى ناط به إيجاد دستور لمستعمرة توريو التى تأسست على أنقاض مدينة سيبارس. وطالما تردد على هذه المدينة . فكانت أنبل الأسر تفخر باستقباله وأخذت تفتح أبوابها على مصراعيها لمستمعيه المشوقين ؛ وكان خبر حضوره يجعل النشوة تسرى فى الفتية . وكانت الإشاعات التى يطلقها حول المبالغ التى يكتسبها من جولاته للمحاضرة بمثابة إعلانه الأول : أفلم يذهب الناس بعد وفاته إلى حد القول بأنه اكتسب من النقود أكثر مما اكتسبه فدياس وعشرة نحاتين آخرين معاً ؟

أما چورچياس الصقلىّ فقد عرفته أثينا لأول مرة كسفير أرسله مواطنوه

من بلدة ليونتيوم صيف عام ٤٢٧ استنجاداً بها ضد سراقوزة. وكان قد أشرف على الستين . وكان لجلال مظهره وفخامة ملبسه وعلى الأخص لانسجام كلامه انسجاماً رقيقاً وفخامة هذا الكلام البراقة بعض الشيء ، كان لهذا كله نجاح باهر . وعلى الرغم من أنه قليل الحظ من الجدل إلا أنه كان فناناً كاملا فاستطاع أن يخلق لنفسه أسلوباً خاصاً عنى فيه بالكلمات الخارجة عن المألوف وموقعاً توقيعاً ملئا بالطباق والجناس فكان يحيط بهذا الرنين أكثر الأحاديث ابتذالا فيقصر الانتباه على جماله الرنان. ثم أصبح هذا النوع من البلاغة وحيا للآثينين وسرعان ما صار الأسلوب الجورجياسى بدعاً سائداً .

وأتى برودیکوس هو الآخر من کیوس بصفته سفيراً وكان رجل (التدقيقات) : إذ كان مشهوراً بعلمه بالترادفات وبالدقة المتناهية فى لغته . كان هو وهيبياس عدلين تقريباً وكانا من جيل متأخر عن بروتاغوراس وجورجياس. أما ترازيماخوس الخلقدونى فقد أتى فى بتانياوهو مؤلف كتاب «الفن الكبير» وكان بارعاً فى اللعب بالعواطف . وكم من آخرين يقلون شهرة عن هؤلاء ولكنهم لايقلون عنهم ادعاء قد تعثروا فى أخاديد كبار السفسطائيين يتلقطون نصيبهم من المجد والمال . وفى أثينا حيث كان التعليم مسألة خاصة تراقبها الدولة عن بعد وكان لايزال أولياً جداً إلى ذلك الحين، نشأ هكذا فجأة نوع من التعليم العالى فى صورة محاضرات المعرض أو دروس خاصة سرعان ما شاعت . ولما كان هـذا التعليم قد أوجد لإعداد شباب يحيا حياة مواطنين منتجين لم يجد أفضل من أن يزودهم بثقافة عامة سريعة بقدر ماهى براقة ؛ تمرين صورى صرف

وليس ثمة من مثل أعلى آخر فى عرف الفضيلة السياسية والمدنية ، غير معرفة الكلام بنجاح فى المحاكم والمحافل .

وحينما بلغ أفلاطون طور البلوغ كان بروتاغوراس قد مات منذ عدة سنوات . وبعد أن جاب جورجياس اليونان بأسرها ظل فى لاريس بتساليا حيث توفى عن نيف ومائة سنة بعد سنة ٣٨٠ بعد أن عرف كل الانتصارات وكان قد تجنب بكل عناية ، خلال ذلك المجد وتلك الثروة ، كل المشاغل سوى فنه الخاص . ولكن هيبياس وبرود يكوس كانا لا يزالان فى تمام نضجهما . وهما تلميذا بروتاغوراس وجورجياس وقد حلا محلهما فى المهنة وجمعا من حولهما التلاميذ. وبقدر ما كان حب استطلاع أفلاطون العقلى وتأمله يتزايدان على مر السنين بقدر ما أتيح له من فراغ يمكنه من أن يتنقل من سفسطائى إلى آخر وان يقارن بين تعليمهم ومناهجهم ووسائلهم .

لم يبدأ الشباب منذ اليوم فحسب بدراسة أساتذتهم قبل دراسة محاضراتهم وبالوقوف على جنونهم وبتحديد نزواتهم ولوازمهم فى صرامة لا هوادة فيها . فقد قدم السفسطائيون مادة جميلة للملكة الملاحظة اللطيفة عند فتية الآثينيين . وهم مدرسون أحرار مضطرون إلى السعى بأنفسهم وراء جمهورهم فإن أرادوا الاحتفاظ بذلك الجمهور كان عليهم أن يشتركوا فى مسابقات حرة غاية فى المهارة فكان مفروضاً عليهم إذن أن يقوموا بدعاية مستمرة . ولم يكن من الواجب عليهم أن يكيفوا أنفسهم حسب مقتضيات الأيام فحسب بل كان عليهم كذلك أن يجددوا فيها وأن يتجاوزوها فى شىء من المبالغة أو بشىء من الغرابه الظاهرة

وعن هذا الطريق سعوا دائماً نحو التأثير أو المبالغة أو الصنعة فى اللغة بل وفى الملابس وغالوا فى الشذوذ حتى بلغوا به حـد الإضحاك . وأخيراً فإنهم لم يبذلوا تعاليمهم دون مقابل نقدى ولقد ظهروا فى هـذا الباب بمظهر المتباهين والمتشددين فاحتقرهم شـباب الأرستقراط الذين كانوا يترددون عليهم ناظرين إليهم كتجار وباعة متجولين ووجدوا لذة فى الانتقام على هـــذا النحو من غطرستهم ومن دروسهم المرتفعة الثمن التى لا محيص لهم عنها ومن تأثيرهم الذى لا يمكن دفعه .

٤ — روح العصر ؛ الروح العملية

كان هذا التأثير يزداد شدة كلما كانت نفوسهم أسلس قيادة وأقل شخصية. هذا ولم يكوّن السفسطائيون مدرسة ؛ فلم يكنّ لهم على وجه التحقيق مذهب قائم بذاته . بل كان يتردد عليهم فريق مشترك وكانت لهم رغبة متساوية فى إرضائهم ومهما يكن من أمر مواردهم الثقافية وميولهم المختلفة فقد كانت لهم جميعاً نفس الرغبة فى إشباع ميولهم الأساسية . فإن المنافسة القائمة بينهم قد قربتهم من ذوق جمهورهم وحاجاته قرباً شـديداً . ولم يكن همهم الطبيعى إيجاد أفـكار جـديدة بقدر ما كان من التلائم والأفـكار الموروثة ومن تملك هـذه الأفـكار بصياغتها فى عبارات أبسط وأقرب إلى الذهن أو بإلباسها أثواباً أفخم .

فلم يخلقوا الشك بأزاء المذاهب القائمة ولم « ينزلوا الفلسفة من السماء إلى

الأرض» .. فالمذاهب قد عُفّى عليها بمجرد تعارضها وتناقض بعضها مع بعض وأفنى نقد زينون الإيلى أو تلاميذه : الأجزاء الرئيسية من المذاهب الكونية بعضها ببعض حتى لم يبق منها إلا رماد . وأصبح دور من يريد أن يفسر مايجرى فى السماء أو يروى حدوث العالم مضحكا لدرجة أن المزليين لكى يهزأوا بالسفسطائيين وبسقراط نفسه هزوا لاذعا دون أن يجهدوا أنفسهم فى غير طائل لم يجدوا خيراً من أن يدثروهم بهذا الثوب البالى .

عاش هذا الجيل الجديد على الأرض وتحول حب استطلاعه الذهنى إلى هذه الأرض وإلى الإنسان الذى يحيا فيها أى نحو الجغرافيا والتاريخ والطب ودراسة « الأهوية والمياه والأماكن » من حيث تأثيرها الطبيعى والمعنوى ثم نشأة المدن وأصول القوانين والدساتير والفوارق بين الشعوب والاختلاف فى العادات والاعتقادات « عقلية البدائيين أو من يعيشون على الفطرة » تلك هى المسائل التى تحدثوا فيها والعلوم التى أوجدوها . وكان إيمان هذا القرن بقدرة الابتكار الإنسانى إيماناً لا حد له . هذا الابتكار الذى كان يؤسس المدن ويوطد الشعوب ويبتكر الجماعات والأديان والآلهة .

ولم يكن شك مدرسة ولاقنوطاً ميتافيزيقياً ولكنه كان قبل كل شىء يقيناً عاما بقدرة الإنسان التامة وهو مايعبر عنه قول بروتاغوراس : «الإنسان مقياس كل شىء . فهو يعتبر بعضها موجوداً وبعضها الآخر غير موجود » . فإن سنت المدن القوانين فإن هذه القوانين عادلة . أعنى لها قيمة طالما تراءى

للمدينة أن تحتفظ بها وما له قيمة هاهنا ليس له قيمة فى مكان آخر ، كما أن ما له قيمة اليوم قد يفقدها فى الغد ، وتغير هذه القيمة يتوقف لا على ظروف مستسرة غريبة ولكن على الأحوال الروحية المتغلبة لطائفة من الأفراد ، أحوال روحيـة يوجهها الفرد الأزكى حسبما يهوى . وليس ثمة حالة روحيـة أصدق من أخرى إنما هى أحسن منها فحسب أعنى أكثر فائدة وأكثر وفاقا مع الضرورات القائمة. والرجل الذى يعرف كيف يعالج المعتقدات يتمثلها ويجعلها صادقة مثل الطبيب الذى يداوى أجسام مرضاه ويشفيها .

وصبغة هـــذه النزعة العملية أقل دقة عند جورجياس لأنه بدلا من أن يحلل بهذه الطريقة النفاذة الأحوال الروحية للذات وما تعنيه من تحولات نراه يقف طويلا كى يشـيد بقوة الكلام أداة تلك التحولات . كان جورجياس أستاذاً للبيان فحسب كما كان يريد بروتاغوراس أن يكون معلماً للفضيلة أعنى المهارة فى الشئون الخاصة والشئون المدنية لذلك جعل جورجياس من الوسيلة غاية . فقد نشد المتعة فى القوة الاقناعية للكلام وفى الوسائل التى تؤيده وتبلغ به حد الكمال . ولم تكن تلك القوة الإقناعيـة ثمرة الدرس ولا ثمرة علم مكتسب متعلق بموضوع البحث ولم تنشأ عن اقتناع يمكن نقله ولكنها والى حد ما ، هبة فطرية فى الخطيب وهى إلى حد أكبر سر من أسرار الكلام . ولا ينبغى أن تستخدم المناهج القويمة إلا فى استخراج هـذا « السحر الذى فى الكلمات » على أحسن الوجوه .

ولعل جورجياس لم ينكر فى تعاليمه العادية وجود حقيقة ما . ولكنه

ذهب فقط إلى القول بأن معرفتها غير مفيدة ذلك أنه فى كل موضوع «يكون نجاح من يحسن البيان فى امتلاك أعنة القلوب مؤكداً عن نجاح رجل المهنة مهما يكن أمره» . ونحن نرى أن الموقف فى جوهره عملى دائما . فليس المطلب هو المعرفة أوالتعليم ولـكنه العمل والدفع إلى العمل . فالعقل الإنسانى لا تسببه الحقيقة ولا تسيطر عليه ولـكن العقيدة هى التى تفعل ذلك والـكلام المصوغ بفن هو سيد هذه العقيدة . وليس فى وسع المرء أن يشيد بسحر الـكلام كما فعل جورجياس دون أن يجد فى الإقناع من شأن ما هو أقل تأثراً بالعقل وما هو أشد تأثراً بالاندفاع والعاطفة . وها هو ذا جورجياس قد أعلن أن الخطيب لا يمكنه أن يتحكم فى العقيدة والرأى كما يشاء دون أن يهز المشاعر . ومن بعده كتب ترازيماخوس مؤلفـه « فن إثارة الشفقة » وتخصص فى « البلاغة العاطفية » .

٥ — مذهب الشك

كانت معارضة العقيدة بالعلم نغمة قديمة فى الفلسفة اليونانية. فاكسينوفان جد الفلاسـفة الايليين قد أعلن منذ أمد بعيـد أن كل علمنا عن العالم ليس سوى ظن . وبارمنيدس من بعده قد اعتبر العالم خداعا خالصاً ؛ فتحول عنه باحثاً عن الـكائن الثابت وعن الحقيقة « كما يعرفها الآلهة » . أما أكبر تلاميذه زينون فلم يحتفظ إلا بالجزء السلبى من مذهب أستاذه . ولقد حطم كل علم نظرى عن طريق نقده الهدام . ولدينا شخصية أخرى هى انباد قليس من

اجريجانته وأستاذ جورجياس إذ كان رجل المفارقات حقا . فهو على العكس من بارمينيدس قد سلم فى صراحة بالحقيقة الإنسانية البسيطة وشرع فى قص حدوث العالم وتطوره. ولكن هذا لم يمنعه من البحث فيما يتضمنه العالم من « حقيقة إلهية » التمسها فى بوارق الإلهام عند الفرق الصوفية . فقد كان انبادقليس إذن فيلسوفاً طبيعياً على النحو القديم مبشراً بالنحلة الأورفية ، وخطيباً يهز مشاعر الجماهير ، وفناناً يشعر شعوراً صادقاً بمدى ما تحمله كلماته ومواقفه من احتيال فلهذا كله كان بمثابة حلقة اتصال بين العلم المهجور وبين الإيمان بالفعل الجبّار .

وجد السفسطائيون إذن السبيل ممهداً . بعد أن زال كل اعتقاد فى الحقائق الإنسانية أو الإلهية على السواء ؛ ولكن قوة الرأى العام أخذت تزداد شيئاً فشيئاً ، فكل مدينة مهما ضؤل شأنها كانت دولة ذات سيادة . وفى هذه الدولة وجدت طائفة على الحياد تتألف من الأنغال والعبيد وأقلية ممتازة ألا وهى : المواطنون . وكانت الحقوق السياسية وقفاً عليهم فكانوا يكوّنون فى مجتمعهم « اكليزيا » كومة من الأفراد متساوين فى حق التصويت وفى حرية العمل ، كما كانت لهم روح الجماعة : روح تهتز وتخضع لكل نسمات البلاغة . فلا ندهش إذن إذا كان السفسطائيون وتلاميذهم قد اعتادوا ألّا ينظروا إلى أى موضوع إلا من الناحية الخطابية . واعتبروا معيار الحق والحقيقة ما للفكرة من قدرة على الإقناع أو نصيب من النجاح ، فكان طبيعيًّا جداً أن ينقلوا براعتهم فى الدفاع وطريقة « الأخذ والرد » فى تمريناتهم

المدرسية إلى أجل المشاكل خطراً وإلى مناقشة أشد المبادىء أهمية . وعلى هذا النحو حولوا الشك السائد فى ذلك العصر إلى صيغ وحجج ، وساهموا فى تحطيم كل ما كان يمكن أن يقف حائلاً دون أطماعه فى القوة والسيطرة .

ليس للفعل الإنسانى مصدر ولا مادة غير الإنسان : فعلام إذن هـذا الاهتمام بكائنات خفية ليس فى الوسع أن نشهد لها أثراً أو وجوداً ؟ . وعنـد هـذا الحياد وعدم الاكتراث وقف بروتاغوراس يقول : « لا يمكننى أن أعرف ما إذا كان ثمة آلهة أو لا كما لا أستطيع أن أعرف صورهم . هـذه مسألة قليلة الحظ من الوضوح وما أقصر عمر الإنسان ! » وقد تواتر منذ عهد اكسينوفان فى الواقع القول بأن الإنسان يخلق الآلهة على صورته . ولـكن اكسينوفان لم يعترض على هـذه الآلهة البشرية إلى حد كبير إلا لـكى يؤكد على خير الوجوه السمو الإلهى . والمعتقد أن ترازيماخوس لم يكن يود أن تفلت من يده هذه الحجة ضد العناية الإلهية وأعنى بها حجة انتصار الأشرار . أما بروديكوس فقد فسَّر أصل الآلهة بأن قال : « لقـد ألّه الإنسان ما ينفعه : الشمس والنجوم التى تضىء له ؛ وديونيزوس وديمتريوس اللذان يقومان من أوده . »

ما عسى أن يكون أثر هـذه المذاهب التى يتجاوبها كل مكان فى الفتى أفلاطون ؟ لقد « ارتشف مع لبن الرضاع هذه المعتقدات المليئة بالسحر ، التى وصلت إليه عن طريق أحاديث الأمومة العذبة ، والمذبح الفخم ، والصلوات التى تعقب العبادة المنزليـة كل يوم » . وإلى أن بلغ عامه الرابع والعشرين كان

يتحدث فى شىء من الحماس عن دروس النسك العائلية هـذه . وكانت له فى طفولته تلك الروح الشاعرية التى ظل محتفظاً بها حتى يومه الأخير إلى جانب هـذا النظر القلبى الذى يخلع الصورة على ما لا يرى . ولـكن بأية لهجة مليئة بالرحمة الرقيقة سيعظ فى شيخوخته هؤلاء الشباب الذين كان يدفعهم كل شىء إلى الفسوق : نتيجة تهور الشباب واندفاعه وتآمر كل هؤلاء المعلمين الجهلاء فى غير وعى ؛ من شعراء وخطباء وعرافين وكهان، ثم علم الفلاسفة الـكاذب ! أناشدكم الله أيهـا الشباب أن تنصتوا إلىّ : « لا زلتم أحداثا وسيغيّر الزمن من شعوركم فانتظروا إلى ذلك الحين ، ثم أصدروا حكمـكم بعد ذلك فى هـذه المسائل الخطيرة . ثقوا فى شهادتى فلستم أول من تحدث بمثل هذه الأفـكار عن الآلهة . ولقد وُجد دائماً من تحدث بهـا وعرفت منهم كثيرين . أؤكد لـكم أنه ما من أحد أنـكر وجود الآلهة فى شبابه قد استمر على هـذا الرأى إلى أن بلغ الشيخوخة » .

لقد كان أفلاطون فى شبابه كذلك متغطرسًا تواقاً إلى الحياة ، واثقًا من نفسه ، سهل التأثر كأى شاب آخر . فإذا كان من الممكن أن يزدرى أو على الأقل يتجاهل الآراء الدينية للأساتذة الذين لم ينصت إليهم إلا على سبيـل حب الاستطلاع ومن أجل أن يتعلم منهم كيف يحسن التحدث فحسب ، فـكيف يتأتى له إذن أن يتجاهل أفـكار قريبه وصديقه اقريتياس ؟ لقـد كان هذا شاعراً هو الآخر ، ولـكن شعره من النوع الجاف الخالى من الروح الذى يصلح للتهكم أو لعله يصلح لتلك البسمة المقتنعة بالإنـكار . وكل شىء يحمل

على الاعتقاد أن بطل درامته سيزيفوس كان مترجما عن فكره الصحيح حينما قص علينا كيف يتقدم الإنسان بخطى بطيئة من الحياة الحيوانية إلى أن يرتفع إلى أعلى الأفكار الخلقية والدينية . ولكن كلمة « أفكار » هنا غير مناسبة: فهى مخاوف ومخاوف موحى بها تُغذَّى بمهارة فائقة . هى أكذوبة حكيم قد خلق الآلهة شهداء منتقمين للجرائم الشديدة الخفاء . والجماعة بغرائزها ومعتقداتها وكل مافيها من شيء مقدس كل هذا اصطلاح وتواضع وصناعة مقصودة . فإذا كانت مثل هذه المذاهب قد ظهرت دون أن يعوقها عائق ما ، فلماذا إذن لم تفسد الروح الجمعية ؟

البيئة السياسية

١ — السياسة الواقعية

إن القيد الذى تئن منه إرادة القوة أنيناً موجعاً هو ذلك الشىء الهش العنيد الذى يسمونه : الحق . فإنه يعوق إرادة القوة فى مناوراتها وفى التمتع بما تظفر به ، وهو لا يُسام ولا يموت ، ويحول بينها وبين أن تفرض نفسها . ولما كانت حريصة على تبرير عنفها فإنها تنعت احتجاجات المقهور بالنفاق : « لا يلعن الظلم إلا من لا يقوى على ارتكابه » .

وفى وسعنا أن نتساءل ما إذا كان ترازيماخوس الذى نسب إليه أفلاطون هذه العبارة قد قال حقاً فى تعاليمه إن العدل منفعة الأقوى ؛ وإن بولوص تلميذ جورجياس قد أيد حقيقة الرأى القائل بأن الظلم التام والطغيان الظافر هو السعادة العليا . فمؤلفاتهم ليست بين أيدينا . ولكن لدينا التمرينات المدرسية نقلها طالب سفسطائى فدم فى مؤلفه « الأقوال المزدوجة » . ففصله المُعنون « فى العدل والظلم » يشهد بأن هذه التعاليم قد ولّدت الشك الذى قاد الشباب من الخطباء إلى أن يتناولوا بالتأييد أو بالإنكار جميع المسائل حتى مسائل الأخلاق الاجتماعية . وتوقيديدس شاهد من طراز آخر . فهو ينسب هذه الصيغ من السياسة الواقعية إلى ممثلى أثينا أنفسهم حينما كانوا يجادلون الميليين

قائلين : « الناس كالآلهة يبغون السيطرة . فإذا تساوت الضرورة بين الطرفين انتظموا على العدل . وإذا اختلفت شطح الأقوياء إلى أقصى حدود قوتهم وليس على الضعفاء إلا الخضوع . هـذه هى القاعدة الثابتة منذ الأزل ، أن يكون الأضعف خاضعاً للأقوى » .

ليست هذه الأشياء لدى المؤرخ ذكريات بالية من عهد المدرسة ؛ وإنما هى المبادئ التى سيطرت فى تلك الآونة على سياسة جميع الولايات اليونانيـة وهى التى انقادت لها الأحزاب فى كل ولاية . ففى الصراع الذى قام بين أثينا وأسبرطة منذ عام ٤٣١ وشمل جميع مقاطعات اليونان على وجه التقريب بالمعارك أو الدسائس ، لذّ لاسبرطة أن تنصب نفسها بطلة الدفاع عن حرية المدن الصغيرة ضد الاحتلال الأثينى . ولـكن مذهبها هذا فى الحرية لم يصدر إلا عن حقدها الأزرق ضد أثينا ولم يمنعها فى سـنة ٤١٢ من أن تؤدى مساعداتها المالية وحلفها مع ملك الفرس بمعاهدة سلبت المدن الأيونية ما تمتعت به من استقلال خلال ٧٠ عاما وأنـكرت فيها ماضى بلاد اليونان المشترك .

وبالقدر الذى تسممت به الوطنية اليونانية من جراء هـذه الحرب بين المدينتين تسممت كذلك الوطنية المحلية فسرعان ما أصبحت هذه الحرب لا حرباً بين سياستين فقط بل وحرباً بين الطبقات لا هوادة فيها ولا لين . ولأول مرة فى كوركيرا عام ٤٢٧ وهى نفس السنة التى ولد فيها أفلاطون ، أضافت الحرب الداخلية بين الأرستقراطيين والديموقراطيين إلى فظائع الحرب الخارجية وحشية تفوقها فظاعة . واغتصب الأرستقراط الحـكم عنوة بتأييد كورنثوس

واسبرطة . فقامت معارك دامية فى الشوارع ، وفى المنازل ، ونهبت المدينة وأحرقت . أما فى البحر فان الأسطول الاسبرطى والكورنثى كان يفر من الأسطول الأثينى وهكذا استعاد الديموقراطيون الثقة فظلوا سبعة أيام يحاكمون ويتهمون ويقتلون من بقى من أعدائهم ممن لم يقتلوا أنفسهم يأساً وغضباً . وسرعان ما عانت بلاد اليونان كلها هذا التمزق . وهكذا انقسمت كل مدينة على نفسها وأهاب رؤساء الأحزاب الشعبية بالأثينيين بينما أهاب الارستقراطيون باللاقوديمونيين . وتحت ستار إيجاد المساواة أو إعادة دستور الأجداد لم يفعل رؤساء هذه الأحزاب أو تلك أكثر من أن يتفاوبوا السلطان فيما بينهم إرضاء لطامعهم أو لثرائهم . وأصيبت أثينا نفسها وهى حصن الديموقراطية بهذه النكبة فرأت دستورها يتزعزع وحريتها تختنق فى الدماء ثم تبعث بالدماء ، وفشلها أو نجاحها لم يعودا إلا تعلة للثورات . وأخذ أعداؤها عن اعتقاد أو عن هوى يسلحون قواتها أو يهدمون قلاعها عن طريق مواطنيها أنفسهم. وهكذا عاش أفلاطون ، بين الخامسة عشرة والثلاثين من عمره ، فى كل هذه الأحداث الرهيبة .

٢ — نكبة صقلية

وحكومة الأربعمائة

أبرمت فى عام ٤٢١ معاهدة سلام بين أثينا واسبرطة عرفت بـ « سلام نيقياس » . ولكن الشكاوى المتبادلة من الطرفين وحركات المحالفات الدفاعية

بدأت منذ اليوم الثانى لإبرام المعاهدة . وأصبح هناك حزبان جديدان يواجه أحدهما الآخر : اسبرطة مع طيبة وكورنثوس ، وأثينا مع أرجوس وإيليس ومانتيانه . وكان أول انتصار دبلوماسى أحرزه القيبيادس هو نجاحه فى عزل اسبرطة عن هاتين المدينتين الأخيرتين ، كما كان يحلم بانتصارات حربية يمكن أن تهيىء له مركزاً مساوياً لذلك الذى كان لبريكليس الوصى عليه . فأيد بكل ما أوتى من قوة حملة صقلية حينما أتى سكان سيجنت شتاء عام ٤١٦ طالبين النجدة ضد سراقوزة . وكانت أغراض هذا المشروع مقبولة كما كانت فرصة للنجاح جميلة . ولكن عرقل الحملة أن كان القائمون على أمرها هم لاماخوس الجندى الممتاز المطيع إلى حد كبير لآراء زملائه، ونيقياس كبير الارستقراطيين وعدو القيبيادس وكان كثير التردد فى القيام بتلك الحملة وطالما رغب فى منعها، والقيبيادس الذى كان لتأثيره وعلمه الحربى ودسائسه ما مكّن المشروع من النجاح رغم الوقت الذى ذهب هباء فى أول الأمر . ولكن مركزه سرعان ما تزعزع حينما نسبت إليه تهمة أرغم على ألا يجيب عليها فاستدعى فى سبتمبر عام ٤١٥ للعودة إلى أثينا وهناك مثل أمام قضاته .

حدث فى اللحظة التى كانوا يعدون الأسطول للرحيل فى ليلة من ليالى مايو أن وجدت تماثيل هرمس وقد شوهت وجوهها . تلك التماثيل التى كانت توضع أمام المعابد أو المنازل الخاصة والتى شرفها الأثنيون أكثر من غيرهم فى عبادتهم. فلما زايل الشعب ذهوله نادى بأن هناك مؤامرة . فقدمت اتهامات عدة : استهدف لها أول الأمر القيبيادس فاتهم بأنه قد مثل الأسرار بطريقة ساخرة

فى أحد الاجتماعات المرحة . ثم اتهم أيضاً عدد من الشباب الذين ينتسبون إلى أرقى الأسر. قيل إنهم وجدوا وهم يعبثون بتماثيل هرمس: وكان بينهم أقرتياس وأندوسيدس أحد أبناء عمومته . فثارت ثائرة القبيادس وطلب المحاكمة رغبة ملحة منه فى أن يزعزع الاتهام . ولكن أعداءه فضلوا الانتظار حذر الشعب والجيش . وقد فضلوا هدمه دون اتهام أثناء غيابه . وأجّلوا تقديمه للمحاكمة حتى يكون مركزه قد تضعضع . رحل القبيادس إذن مع الحملة ولكن أقرتياس ظل سجيناً مع المتهمين الآخرين . وكان الموت سيكون نصيب الجزء الأكبر منهم لو لم يعلن أندوسيدس عن نفسه أنه على رأس المتآمرين فأنقذ بهذا الاعتراف أو بهذه الكذبة حياته وحرر الباقين . ولما اتضحت مسألة هرمس على هذا النحو تحول غضب الشعب نحو مدنس الأسرار . فأرسلت سفينة السلامية لإعادة القبيادس ولكنه كان قد اختفى خلسة أثناء الطريق ، وهرب فى البلويونيز . وقد حكم عليه قضاة أثينا بالموت فكان رده السريع أن دفع اللاقوديمونيين إلى مساعدة سيراقوسه مشيراً عليهم بتوجيه هجماتهم نحو البر ليحطموا قوة أثينا. وكانت نصائحه فعالة إلى حد جعل الحملة ابتداء من سبتمبر ٤١٣ تتردى فى نكبة هائله فكان هذا بالنسبة لأثينا بمثابة الخطوة الأولى نحو الدمار .

جيشان يخضعان وينفذ فى قائديهما حكم الإعدام. وسبع ملايين من المساجين يموتون من البؤس داخل المناجم . أما الذين امتد أجلهم فبيعوا عبيداً ، وفُقد الجزء الأكبر من الأسطول . رفضت أثينا فى ذهولها أن تصدق ذلك ولكن

اليونان بأسرها رأته وسارعت تُعجل دمار الدولة التى ظلت حتى ذلك الحين غير قابلة للهزيمة . فشيدت إسبرطة أسطولا وتحركت الدول المحايدة لتأخذ نصيب الكلب من الغنيمة وثارت الممتلكات الأثينية . أما أثينا فتنبهت وقدرت الأمر من جميع النواحى وسرعان ما رأت أن مجلساً من خمسمائة مندوب كان بمثابة رؤوس عديدة لجسم واحد عليه أن يعد وينفذ على أكمل وجه أخطر القرارات . فعينوا من أجل هذا عشر مندوبين محضرين تمتعوا فى الواقع بكل سلطة مجلس الخمسمائة . وتوالت بعد ذلك إصلاحات أخرى. ولكن الاسبرطيين احتلوا دقلية التى تبعد عن أثينا عشرات من الكيلومترات وعسكرت قواتهم على مرأى من أثينا نفسها وكانت تسيطر على السهل والجزء الأخصب من أتيكا. وحجز ذهب لاريون ، وتعهدت الفرس بأموالها الأسطول اللاقيديمونى الذى عززته أثينا وعشرون سفينة صقلّية . وآن الوقت لمشروعات الإصلاح الجدية ولكنه آن كذلك للدسائس وللضربات العنيفة .

فهاهم جماعة من الأوليغارقيين المعتدلين يقودهم ترامينيس وهو ابن أحد المندوبين الجدد قد ادعوا أنهم يرجعون إلى دستور خرافى لدارقون كان قبل سولون . وكان أنتيفون الرامنوسى وبزندروس وفرينخوس مناصرين لأشد أنواع الأوليغارقية تطرفا . كل هؤلاء قد سارعوا فى نفس الوقت ليحولوا دون رجوع الفبيادس وليستغلوا الهياج الذى تحدثه دسائسه ووعوده لأن أستاذ السياسة هذا ، أخذ يقوم فى ذلك الحين بمناورات من شأنها أن تسلب اسبرطه المزايا التى أعطاها لها وأخذ يعمل بقوة لكى يحول إلى أثينا ذهب تيسافرن .

وأعدت جماعات الأوليغارقيين السرية الضربات فى الظلام ، فقتل الفتيان من حراسهم ، الديموقراطيين، ولم تكن الجمعية لتصدر القرارات إلا تحت ضغطهم وشمل الإرهاق والاتهام الشعب بأسره . ونُفذت المؤامرة بين مايو ويونيه فتقرر إنقاص عدد أعضاء المجلس العالى ، وأن تحفظ الحقوق السياسية للخمسة آلاف مواطن القادرين على التسلح على نفقتهم . أما من يكون هؤلاء الخمسة آلاف المميزون فهذا ما لم يذكروه بعد . ولكن اختير أربعمائة مستشار لانتخابهم ولتقسيمهم وليباشروا السلطة مؤقتاً . فاجتمع الأربعمائة متأبطين الخناجر ومحاطين بمائة وعشرين من حراسهم الفتيان . وذهبوا لإخلاء المجلس القديم الذى غادر المكان دون أن ينبس بكلمة . يقول المؤرخ ـ وهكذا « بعد أن تحررت أثينا من الطغيان مائة سنة أكملت هذا المشروع الذى بدا عسير التحقيق، ألا وهو أن تسلب الشعب حريته. هذا الشعب الذى ظل زمنا طويلا غير خاضع لإنسان فضلا عن أنه اعتاد أن يحكم الآخرين » .

ناهز أفلاطون السادسة عشرة من عمره فى ذلك الحين . ولم يكن يتوقع بطبيعة الحال ، مثل جميع من كانت لهم ظروفه من الشباب ، عملا آخر يوم يصبح حر التصرف سوى أن يلقى بنفسه على الفور فى أحضان السياسة . وإن كان هذا المستقبل قد بدا بعيداً فإن الشاب قد امتلأ شعوراً بأن هنالك مصيره وواجبه ، فلم يتوقف لذلك عن متابعة الحوادث فى اشتياق مشوب بعاطفة . هو شوق يميل إلى جانب الوضع الجديد للأشياء، لأن قريبه أقريتياس، مما لاشك فيه ، كان أحد أفراد الأربعمائة ، ولم يكن لأقرتياس فى الحكومة النفوذ الذى

كان يصبو إليه لأنه كان يمثل حزب القبيادس الذى نظر إليه الأوليغارقيون المتطرفون نظرة ارتياب ـ ولعله قد فضّل هذا النوع من الاختفاء الذى شعر بأنه مؤقت . لأن القبيادس لما لم ينل نصيبه من تلك الثورة التى قامت من أجله والتى استمرت دون أن يشترك فيها ، كان قد تحوّل نحو أمانىّ جديدة ، ونحو دسائس جديدة .

ولعله لم يبق أمام الفريق المنتصر من عمل آخر يستحق الإنجاز بعد أن ارتوى من انتقاماته المهمة . وبعد أن أزال الحجب التى تحجب عنه غايته إلا أن يعقد السلام بأى ثمن مع لاقيديمونيا . ولكن هذا الفريق بدأ يلاحظ منذ لحظة وجيزة أن الأسطول الأثينى وجيش ساموس وعلى رأسهما ترازبولوس وترازيلوس أقسما أن يعيدا الحكم الديموقراطى وأن يستمرّا فى الحرب حتى النصر . وأن ينظرا إلى حكومة الأربعمائة كسلطة معادية . وبمساعدة ترازبولوس استعاد القبيادس بسحر وعوده ثقة جيش ساموس الذى انتخبه بدوره قائداً واثقاً من أنه سيحصل بفضله على ذهب تيسافرن وأنه سيعود معه إلى أثينا منتصراً .

وحينئذٍ كشف المعتدلون عن دسائس المتطرفين الذين سعوا سعياً حثيثاً فى الاتفاق مع اسبرطة وحصنوا أرصفة بيرية تجنباً لغضب أثينا وغضب ساموس معاً وهكذا أمكنهم أن يلاقوا العدو كما يشاءون فى أليسيرا وفى البحر فصاح ترامينوس بأن هناك خيانة واتخذ الشعار الذى نادى به القبيادس وهو : إيقاف حكم الأربعمائة وإعادة حكومة الخمسة آلاف إعادة فعلية . أما فرنيخوس فقد

اغتيل وفر قاتله . فلما هزم الأثينيون على أبواب أرتريا وخسروا يوبية التى كانوا يستمدون منها المؤن صمموا على إسقاط حكومة الأربعمائة وعلى إعادة السلطة إلى الخمسة آلاف وطالبوا بإعادة المنفيين . فحكم على أنتيفوس والتجأ بيزاندر والمتطرفون الآخرون إلى دقلية وأعد أقريتياس الذى كان مختلفاً مع ترامينوس بالاتفاق معه التصويت الذى نادى بالقبيادس ودعاه لتولى مهام الأمور .

وبفضل اتحاد متزن بين الديموقراطية والأولغارقية تنفست أثينا الصعداء وبدأت حياة الاستقرار . وفى ذلك يقول ثيوسيديد : « لم يحكم الأثينيون حكماً أصلح مما كان فى هذه الآونة الأولى » ولا يختلف حكم أرسطو عن ذلك . وحينما قاد القبيادس الأسطول ربح ترامينوس وترازيبولس عام ٤١٠ معركة سيزيوقوس وأعادوا غزو ساحل البحر الأسود وأعيد مجلس الخمسمائة واستقرت الديموقراطية التامة التى استمدت وحيها من قليفون فرفضت مهادنة أسبرطة وصممت على الاستمرار فى الحرب حتى النهاية . وفى عام ٤٠٨ أعيد غزو البوسفور . وفى ربيع عام ٤٠٧ عاد القبيادس إلى أثينا ، وقلد نفسه شرف حراسة الموكب السنوى لأثينا الذى كان يسير من أثينا إلى إيليسيس .

هذا الإصلاح فى الدولة الأثينية بدأ يقلق بال دارا فأرسل ابنه الأصغر قيرس إلى ساردیس ليحل محل تزافرن وعين الإسبرطيون من ناحيتهم أميراً جديداً للبحر هو ليزندريس . وفى أثناء غيبة القبيادس وبالرغم من دفاعه الشكلى اشتبك قائمقامه أنتيخوس فى معركة مع أسطول ليزندريس فى نيتيوم.

ولما خسرها هرب تاركا وراءه خمس عشرة ياخرة طعماً للماء . وبذلك فقد القبيادس هيبته وعزله الشعب فاحتمى فى أحد قصوره المحصنة فى خرسونيزا . وجر سقوطه سقوط أقريتياس كذلك . فتذكر قليوفون مشاركة هذا فى حكومة الأربعمائة واتهمه بابتغائه للطغيان واتخذ من مرثية سولون القديمة حجة تؤيد القول بأن هذا المطمح ورائى فى عائلة أقريتياس ودروبيدس . فكان أن فر أقريتياس إلى تساليه حيث وجد مادة غير منتظرة لحبه فى القتال فحاول مع من يدع برومتيوس أن يثير حركة ديموقراطية بتسليحه العبيد ضد السادة .

وفى تلك السنة (٤٠٧) التى رحل فيها اقرتياس إلى منفاه تعلق أفلاطون بصاحبة سقراط وكانت سنه عشرين عامًا .

٣ — محاورات سقراط

لقد عرفه منذ أمد بعيد . ومَنْ مِنْ بين الجمهور الشاب الذى كان يتردد على المراضات والملاعب ومَن مِن بين جمهور الأثنيين على اختلاف أعمارهم لم يألف منظر فيلسوف الشارع هذا . . مضت حياته بأكملها فى الخلاء «فكان يذهب مبكراً إلى أماكن النزهة والملاعب . وكان يُرى فى الأسواق فى الأوقات التى يشتد فيها الازدحام . وفى المساء ما كان يلتئم جمع إلا ويحضره باحثاً عن علة المناقشة ».

لقد صحبه اقرتياس وخرميدس منذ زمن بعيد وظلا محافظين على العهد

حتى عام ٤١٥ على وجه التقريب . وحينذاك جذب اقرتياس فى عنف أثر سياسة القبيادس ثم جذب معه خرميدس المتواضع شيئاً فشيئاً . وكم من مرة سمع أفلاطون الطفل محاورات سقراط يرويانها فيما بينهما . تلك المحاورات التى كانت تفيض بالمكر والطيبة والسخرية اللطيفة ، ولكنها كانت تفيض أيضاً بالسمو والنبل ! ها هو ذا سقراط بين إعجاب مستمعيه الشديد يكشف عن عجز أحد السفسطائيين فى البلاغة . وها هو ذا مرة أخرى يسخر من تناقض المواطنين الأثنيين أولئك الشجعان الذين يكثرون التدقيق حتى يختارون حداداً أو نجاراً لأعمالهم الخاصة فى حين أنهم يستسلمون للبخت وللقرعة فى اختيار حكامهم ! إن تهكمه قد أصبح لاذعاً قاسياً حين يلهب به ظهور أولئك السياسيين الجهلاء المدعين الذين يعتقدون أنهم أخياراً لمجرد تمكنهم من الكلام ومعرفتهم لشىء من البيان ، ولأن أطماعهم لاحد لها . تبع التهكم صوته الرصين وتبعت المناقشة العميقة الأسئلة البسيطة واتخذت أحاديث اقرتياس وخرميدس اللذين كانا يفسران فيما بينهما المشاكل التى وضعها سقراط ، صبغة جدية ، سرية . هذه الأسرار نفسها ، وكذلك روح الشجاعة والإخلاص التى لا توجد إلا لدى الفرسان والتى جرى ذكرها على ألسنة من شاهدوا سقراط فى ميادين القتال ثم تلك الهالة من الشعر التى تنثر من تلقاء نفسها على كل ما يحرك حرارة قلب غلام صغير ، تضافر كل هذا على أن يخلق فى مخيلة أفلاطون شعوراً سابقاً وتوقعاً لرجل يختلف كثيراً عن الباقين ويفضلهم كثيراً فى نفس الآن .

ومع ذلك فإنه لم يسع إلى رفيقه إلا متأخراً . لقد دار من قبل على

السفسطائيين كهاوٍ يلتقط من هذا وذاك فكرة متضاربة ونموذج جملة براقة، أو استدلال بارع ، أو إشارة ، أو موقف ، أو تصنع للعظمة وللبراعة تلك الأشياء التى اشترك مع رفاقه فى السخرية منها أولاً بأول أو التهكم عليها فى قرارة نفسه . وما من شك فى أنه أخذ بنصيبه من تسلية ومتعة من فى مثل سنّه : فانتقل إلى المسارح حين شب وترعرع بعد أن كان يتملّى بالنظر إلى المشعوذين وإلى خيال الظل . وفى حوالى الثالثة عشرة حضر تمثيل رواية العصافير لأرستوفان ، وبعد ذلك بثلاث سنوات فى الوقت الذى اشتدت فيه نكبة صقلية على أثينا سمع ليزستراته تنهر هؤلاء اليونانيين الذين يهدرون دمائهم على مذابحهم والذين يتقاتلون فيخربون مدنهم اليونانية الجميلة بينما كان الأجانب متأهبين بأسلحتهم . وفى هذه السنوات الأخيرة نشر سوفكليس روايته فيلوقتيبوس ونشر أرستوفان يولوتوس الأولى ونشر يوروبيدس أورستا ثم أتباع باخوس حيث أطرى الوجد الصوفى . ولقد حاول أفلاطون نفسه أن يقرض الشعر وتمنى بكل جوارحه لو حذا حذو يوروبيدس . ولكن ملاذاً أخرى وواجبات أخرى شغلته عن تلك الغاية فكانت أمامه الرياضة التى تحتل مركزاً مهمًّا فى حياة كل فتى نبيل ثم شغلته التمرينات العسكرية ومشاركته فى الذود عن حياض الوطن حينما أقسم فى سن الثامنة عشر يمين الجندية .

وكان يشعر من آن لآخر بحاجته إلى الاشتراك فى مجامع الفلسفة . فاختارت له أسرته أستاذاً هو اقراطليوس الأثينى . وهو تلميذ هرقليطس الذى سار بمذهب حكيم افسوس (هرقليطس) إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه .

فكان لا يكتفى بأن يردد تلك الكلمة المشهورة : « كل شيء فى سيلان دائم ولا شيء يثبت على حاله ، ولا يمكن أن ينزل إنسان فى نفس النهر مرتين . » بل كان يقول: « لا يمكن أن ينزل الإنسان إلى النهر ولا مرة واحدة ، لا لأن شيئاً ما لا يبقى على ما هو عليه فحسب بل مادام كل شيء يتلاشى بمجرد ظهوره فإن شيئاً ما لا يبقى مدة كافية لأن تدركه أو لأن تعرفه عقولنا . ولا يمكننا من هذه البرهات التى تتتابع أن نثبت شيئاً أو أن نقول شيئاً . ولا يمكننا إلا أن نؤمن مشيرين برفع الإصبع ! » وقد تركت جولة فلسفته الحية وبراعتها النفاذة أثراً راسخاً فى نفس أفلاطون . ووجد الشاب فيها أقوى صورة من صور هذا الشك العقلى ، الذى تضافر على بثه فيه دروس السفسطائيين ومحادثات اقرتياس بل والهواء الذى كان يستنشقه فى ذلك الوقت .

ولكن ما كان للقلب أن يشك فى سن العشرين . فإن بقية من الحرارة فيه لكافية بأن تجعله يجيب عن شكوك الروح أو عن نكراتها بتأكيدات من عنده هى تعبير عن رغبته فى الحياة وعن إيمانه فى وجوده وفى قوته . رغب أفلاطون فى الاندماج فى الحياة بكل ما أوتى شبابه من حمية . فلاحظ أن زمن المدرسة قد انقضى ؛ واستشعر من نفسه نضوجاً يهيؤه لتكوين أكثر تعقيداً فجاء يطلب من سقراط ، كما فعل القبيادس واقرتياس وخرميدس نفسه ، أن يعده للسياسة . وكان نفى اقرتياس الذى حرمه من رائده المعتاد سبباً آخر يجعله يبتغى فى سقراط اليوم أميناً على رغباته ، وموجهاً لدفة طموحه ، وهو طموح كان يحس بأنه عظيم ونبيل متناسب مع أسرته ومع نفسه ومع هذا

الأستاذ الذى طالما رغب فيه .

كان سقراط قد بلغ فى تلك الآونة ما يقرب من ثلاث وستين عامًا وكان يعرف عنه ـ كما ذكر ذلك عن نفسه دون خجل ـ أنه كان ابنًا للنحات صوفرونسكس وللسيدة الحليمة فينارِيتا . وكان آثينى الجنس مواطنًا قد سجل اسمه فى ثبت أحد الولايات . خدم كجندى محارب فكان مبرزاً فى مناسبات عدة ولكنه لم يتخط حدود أثينا مطلقًا لسبب آخر خلاف الحرب . هذا ما كان يميزه بوضوح عن أولئك السفسطائيين الأجانب الذين اشترك وإياهم فى حياة متشابهة الظاهر . ووجه آخر من أوجه طرافته أنه لم يشغل بمال وقد كان يحضر لسماعه من يريد فما كان يتناول أجراً على محاوراته بل كان يقول بصراحة أن قبول الأجر نوع من العبودية . وتجارة الحكمة هى تجارة الحب فبالقيام بها تعلق سقراط بالعقول والقلوب . ولما كان قد أخلص بطريقة أدبية كانت تخفى فى الكثير الغالب مخازى كان يتسامح فيها العالم القديم إلى حد كبير كان له أن يتخذ مظهر من « يتابع الجمال » ولكن هذا التعبير كان تعبيراً مجازياً شائعاً وعلى ذلك ظلت شهرته كما ظلت حياته نقيتين على الدوام .

وأى علم وأى تعاليم تلك التى يمكن أن يبيعها ؟ إنه يتظاهر بأنه لا يَعْلَم شيئاً ولا يُعَلِّم شيئاً ، ولم تكن له فى الواقع طريقة الأستاذ أو المحاضر . لقد كان رجل سؤال دائماً . ففضوله لم يبق على شخص ولم يتراجع أمام أى شىء . كان يستجوب السفسطائى فى صميم ثقافته ، والصانع فى صميم حرفته حتى وصل به الاستجواب إلى العاهر تيودكته وهى جالسة أمام مرآتها تهيىء

سحرها . كان يستوقف الشاب فى الطريق أو يستجوبه فى الملعب وسط رفاقه. وطالما تعلل برغبته فى التثقف فسلط على خطيب بعيد الصيت أو سياسى مشهور استجواباً منظماً . هو لا يعرف أكثر من وضع السؤال وتقبل الجواب فيقلبه على كل وجه حتى يظهر فساده . فيسأل سؤالا آخر ويعيد الكرة ويظل كذلك حتى يعترف المبتلى بأسئلته ويسلم معه بأنه لا يعرف شيئاً ، أو قد يرغم على إظهار جهله بالأشياء التى كان يعتز بمعرفتها فيلقى بنفسه فى مهاترات لا طائل تحتها أو يذهب عنه مغضباً . والحال أن سقراط كان منهلا شديد الزحام ، فلم يجد شباب الأسر الغنية الذين اتسع وقت فراغهم منظراً أعذب من منظر أولئك الرجال المبجلين الواثقين بأنفسهم وقد طامنوا من كبريائهم أمام هذا القاضى المتشح بثوب التلميذ . وكانوا فيما بينهم يتنافسون فى تطبيق هذا المنهج الرائع على أكبر عدد ممكن من الضحايا . ولم يعوز هؤلاء الشبان أن يجدوا بدورهم علماً باطلا يكشفون عما فيه ، ولا مغروراً يتيرون حفيظته .

كثيرون هم هؤلاء الذين لم يروا فى سقراط أفضل من هذا فترددوا عليه باعتباره الجندى المحنك والمتحدث بسديد الرأى فى المسائل القضائية والسياسية، وهل كان للتفنيد السقراطى فى رأى ثلة الشبان الطموحين المتهافتين على اللعب معنى آخر أنفع من هذا المعنى؟ شعر أحسنهم حظاً فى المواهب أمثال القبيادس واقريتياس أحياناً بوخز تفنيده فى أعمق أعماقهم . وكشف الغطاء عن عجبهم واتضح فراغ حياتهم فولولوا من الإفحام والغضب . ولكن إرادة القوة العمياء أكدت فى قلوبهم وناداهم أتباعهم وقد نفذ صبرهم وسلم العالم لهم نفسه ،

فأرجوا جفونهم دون سقراط الحقيق خوفاً من أن يفهموه أكثر مما يجب واتخذوا منه فى آخر الأمر سفسطائياً أكثر جاذبية وأقدر على تكوين النفوس.

ويمكننا أن نتخيل أفلاطون وهو يسعى إلى سقراط تصاحبه ثقة مشوبة بإعجابه الطويل الساذج . ومع ذلك فقد اضطرب منذ أول محادثة لما كان فيها من قلة تلطف . ويحتمل أنه قد عرف أن سقراط لم يعالج فروضاً أو نظريات تتصل بالطبيعة والسماء والآثار العلوية ، وأنه اهتم فقط بالإنسان وبسلوك الإنسان فى المدينة التى يحيا فيها . ولعله قد وعى من روايات أعمامه وكذلك من النقد المر الذى أتاه من كل مكان ، إن سقراط لم يقصد ربط هذا السلوك بالتقاليد العائلية أو بالأمور المعمول بها أو بآراء وأصوات الأغلبية . فخال إذن أستاذه العجوز ، وهو بعيد عن أن يوجد أية عقبة فى سبيل تحقيق أحلامه فى المشاركة السياسية ، أقول خال أستاذه سيلج معه السياسة بنفسه ويبدأ منذ اللحظة الأولى بأن يمهد له الطريق إلى دراسة الرجال وإلى تعدد الطبائع وخير الوسائل فى تتبعها أو فى مخالفتها وأن يرشده أخيراً إلى كيفية إدارة الحديث إن فى الهجوم أو فى الدفاع .

ولم تكن ثمة غاية أخرى فى نظر الذين كانوا يعدون له مستقبله وفى نظره هو ، من التعاليم التى لقنها ومن التعاليم التى تركت له حرية اختيارها سوى شحذ ذهنه وطلاوة لفظه فى هذا الضرب من السياسة العملية . قد يكون نقد اقراطيوس العنيف الذى يشتت النفس قد حد بصورة ضعيفة ومتواضعة من مرونة إرادته . ولكن فيما عدا هذا نرى أن جميع أساتذته ورائديه لم ينكروا

فى حضرته العلم أو الحقيقة إلا ليوقفوه على القيمة الفريدة للفعل الذى خلق جماله بنفسه وخلق حقه بنفسه . وها هى ذى تتدفق من وراء أسئلة سقراط المحرجة الواحدة تلو الأخرى أحوال غير منتظرة وحدود وقواعد وقيم تحكم الفعل نفسه وتهبه ماله من قيمة وقد بدا هذا المعيار الأسمى العام بسيطاً معقولاً وهو فى نفس الوقت موضوع لعلم سام ليس بمستعظم على الحياة بأجمعها أن تبحث عنه وأن تحصل عليه . أخذ شباب أفلاطون الفياض وتقاليده العائلية وتمثله فى الأسرة وتكوينه الخارجى أخذهذا جميعاً ينادیه: « العمل ، العمل » . ولكن سقراط وسقراط الساخر الذى لا يعرف شيئاً والذى أرغم الآخرين على الاعتراف بجهلهم والذى تظاهر بأن ليس لديه مايلقنه إياهم لم يلقن أفلاطون غير قاعدة لم تتغير على الدوام هى « المعرفة أولا » .

طلب أفلاطون من سقراط أن يمهد له طريق الصراع اللفظى وأن يعلمه كيف يسيطر على الرغبات المتنوعة . وسأله فصل الخطاب فى فن إقناع البشر وقيادتهم . ولكن فيم أراد إقناعهم ؟ ألكى ينادوا به والياً فيملن الحرب متى شاء فينال المجد ؟ ولكن فيم ينفع النصر إن جهل الإنسان الانتفاع به أو لم يكن خبيراً يكفيه استغلاله فى مصلحته الشخصية ؟ سعى إذن إلى السلطة السياسية وعمل على أن يطمئن إلى تحرره قدر المستطاع من الملابسات والقيود . ولكن فيم تنفع القدرة المطلقة وفيم ينفع الطغيان نفسه ؟ . أفى إعداد الحياة والمنافع المواطنين وفى سوق المدنية جوراً إلى الطريق الذى يقع الاختيار عليه؟ ولأية فائدة إن لم يعرف الإنسان نفسه، الام يؤد هذا الطريق فى النهاية ؟ . .

أيرضى أفلاطون أن يفضى به الطريق إلى إرضاء رغبته فى القوة وإلى أن يهبه لذة الشعور بأنه يفعل ويدفع إلى فعل ما يلذ له فحسب؟ ولكن هل ما يستطيبه ، سيكون هو على الدوام ما يريد؟ أليس ما يريده هو العمل لمنفعته أعنى لخيره الخاص؟ أيرجو من هـــذا الطريق تنظيم المواطنين فى انسجام ووحدة؟ وأى نفع سيعود عليهم من هذا الانسجام ومن تلك الوحدة؟ أليجمعوا رأيهم على قيادة الحرب أو السلام؟ وماذا يحدث لو لم يقع هـذا فى الوقت المناسب وكما يجب أعنى إن لم يتشاورا فى ترو؟ أليست الحكمة هى المنفعة؟ وهل يرتجى نفع مما لم يؤيد بالقسطاس؟ أليس من المتواضع عليه أن المنفعة والعدل والخير شىء واحد بالذات؟ وهل وقع عليه أفلاطون بعد؟ أيعرف فى كل الأحوال ما هو خيره الخاص وما هو خير المدينة وما هو خير كل إنسان وخير كل مدينة؟ فإذا لم يكن له هذا العلم بعد .. أيعرف ماذا يجب أن يفعل ليحصل عليه ، ألا يعتقد أن ليس ثمة شىء أعسر من البحث عنه ومن الحصول عليه؟ . .

٤ — ثورات أثينا

ومحاكمة سقراط

تلك كانت الأفكار التى ألقتها فى نفس أفلاطون يوماً بعد يوم محادثات سقراط واستفهاماته . ولكن أفلاطون الذى أخذته الدهشة فى أول الأمر أخذ يتبع الآن فى شغف طرائق التفنيد السقراطى الحرة المأمونة غالباً التى كان

ضحاياها هم من جهلوا أو لم يرضوا الاستفادة منها . وقد اكتشف فى نفس الوقت وراء بساطة سقراط الظاهرة علواً فى الروح ونبلا فى الإرادة طالما تاقت إليهما أحلام طفولته. ولم تكن السذاجة والابتسام والتهكم المستمر نحو نفسه ونحو الآخرين، عند هذا العجوز غير زهرة نفس نأت بذاتها عن نفسها وعن كل ما لا يتصل بالحقيقة التى تنشدها . كان وافر الاستقلال إذ عزف عن المال والجاه ولم يفرض فكره على أحد مطلقاً بل ولم يفعل ذلك بالنسبة لأشد طلبته قرباً منه ، فخلصت من كل كيانه شخصية قوية لما بدا فيه من بديهة مستعدة للتبصر على الدوام وإرادة غير قابلة للانحراف . كانت لأفلاطون عواطف أخرى قام عليها قلب بلغ من إخلاصه أن بدى له الناس والقدر على درجة عظيمة من الجور . ولكن السنوات التوالى قادته دون شك إلى أن يحكم من أعماقه ، فى قسوة ، على أوهامه التى كان يعتز بها ، وأن يقارنها إن فى الحياة وإن فى الموت بتلك العظمة الواضحة الصافية التى جبل عليها أستاذه الحقيقى وأستاذه الأخير .

غرم الأثينيون ثلاثين باخرة تجاه ميتلينا وظلت الأربعون الباقية محاصرة فى الميناء ، وفى هذه المرة أيضاً شحذوا عزيمتهم وجمعوا فى شهر واحد أسطولا مكوناً من مائة وأربعين قطعة واشتبكوا فى معركة مع أسطول اسبرطة عند أرجنوس جنوبى لشبوس وأغرقت فى هذه المعركة سبعون سفينة من سفن العدو وقتل قائد الأسطول . فكان نصراً جميلاً ولكنه انقلب غماً وكآبة من جراء نكبة ربما لم يكن من الممكن تجنبها إذ أفسدت النصر جريمة خرقاء

تردت من أثرها خمس وعشرون سفينة أثينية فى اليم ؛ فقد حاول القواد الأثينيون أن يستفيدوا من ريح شمالية شديدة فى الهجوم على العدو فتركوا حيث كانوا ترامينوس وترازبولوس وكان معهم سبعة وأربعون سفينة لجمع الغرقى ولكن العاصفة اشتدت وتعذرت معها أية محاولة للخلاص . واتهمت أثينا جميع القواد عدا كانون ولعل الخوف من العقاب أو الرغبة فى الإفادة من غضب الهيئات هو الذى حدا بتيرامينوس إلى أن يتهم القواد أمام المجلس . وسار كاليكسنوس على منواله فقرر مع المجلس محاكمة المتهمين كتلة واحدة دون أن يسمحوا لهم بيوم واحد للدفاع عن أنفسهم . واحتج فى أول الأمر الشيوخ الذين قاموا بدور المستشارين ولكنهم تراجعوا أمام عاصفة التهديد التى أقامها كاليكسنوس متوعداً إشراكهم فى الاتهام . وكان سقراط هو الوحيد الذى جسر على القول « بأنه لن يتخلى عن القانون » ولكن القواد الثمانية قدموا للمحاكمة وقتل ستة على الأقل . وكان أن ندمت أثينا على فعلتها ولكن بعد فوات الأوان ثم رغبت فى معاقبة من قاموا باتهـــام القواد ، فقضى على كاليكسنوس بالموت جوعا تصحبه اللعنة من جميع الجهات .

غنمت معركة أرجينوس ممن حل محل ليزاندريس واستدعت إسبرطة هذا لقيادة أسطوله قيادة فعلية بعد أن أعيد تنظيمه . ولم يكد صيف عام ٤٠٥ ينقضى حتى كانت فى حوزته مائة وستون سفينة أثينية وكان مجموعها مائة وثمانون مما أثار دهشة إيجسبتاموس الشديدة : وقضى على جميع الأسرى بالموت وكانوا حوالى ثلاثة أو أربعة آلاف أسير . وأتت سفينة بارالين بخبر النكبة

وخبر بيريه مع الليل فسرت الدهشة والأنين حتى بلغا أثينا « فلم يغمض لمخلوق جفن فى تلك الليلة ، وأخذ الأثنيون يندبون موتاهم بل قل يندبون أنفسهم إن شئت الدقة » ثم تخلت عنهم اليونان بأسرها خلا ساموس. وطفق ليزاندريس فى الاقتراب تصحبه مائتان من السفن كما عسكر الملك يوزانياس فى ملعب الأكاديمية . وهكذا حوصر الأثنيون برآ وبحراً ، فاضطروا إلى طلب الهدنة تحت إلحاح الجوع. فلم يكن فى مقدورهم أن يحطّموا الجدران. أمهل ترامينوس الموفد إلى ليزاندريس هـذا الأخير أكثر من ثلاثة أشهر لينتظر ، كما يقول أكسينوفون، اللحظة التى يكون فيها الأثنيون مهيئين للاذعان التام تحت إلحاح الحاجة القصوى ، سيما وأن قليوفون رجل المقاومة قد اغتيل . وطُلب منهم بعـد قبول هدم تحصينات ميناء بيريه والجدران الشاهقة التى كانت تحيط بها تسليم جميع القطع الحربية عدا اثنتى عشرة منها . « ودخل ليزاندريس بيرية تاركا السفن خارج أسوارها وأعيـد المنفيون وهدمت الجدر بين أنغام الناى وساد السرور لأن ذلك اليوم كان إيذانا ببدء الحرية لليونان بأسرها» كما كان يؤذن باسترقاق أثينا التى أقسمت « ألا يكون لها أصدقاء ولا أعداء غير الاسبرطيون » وأشرقت عليها شمس اليوم التالى يرافقها الطغيان الداخلى .

« تواضع الشعب على انتخاب ثلاثين مواطنا لتشريع نظم جديدة » حدث هذا تحت إشراف ليزاندريس وهو ما كان ينتظره ليفصل عن بيريه . وكان تيرامينوس طبعا من بين هؤلاء الثلاثين أما أقريتياس فقد عاد مع المنفيين الأخر . وفى فترة انتظار صـدور التشريع الجديد انتخب هؤلاء الثلاثين من

انتقاء أنفسهم أعضاء المجلس الخمسمائة كما انتخبوا الولاة الآخرين واختاروا أحد عشر فردا ليزج بهم فى السجن كما عينوا عشرة مديرين لبيريه واتخذوا لأنفسهم حرسا من ثلاث مائة نفر يحملون السياط وهكذا تألفت حكومة قوية . كان أفلاطون يتمنى دون شك هـذا التعويض لأقريتياس ولم يكن يخلو من زهو لوجود خاله بين مديرى بيريه . وأغلب الظن أن دورة قد جاء إذ دعاه خاله ونفر من ذوى السلطان من أصدقائه لأن يأخذ مكانه فى تلك الحكومة التى تستجيب لأفكاره . ولكن أفلاطون لم يكن ليتابع أحاديث سقراط أو ليتقبل أسئلته أو ليفتح عينيه على الحياة عبثا . لقد ذكر ذلك بنفسه فى خطابه إلى أصدقاء ديونيس . كان يقدر جيدا أن السلطة الجديدة ستعيد المدينة إلى «طرق العدالة» ولكن مطالب نفسه كانت قد سمت إلى حد تولد معه شك خفى يمازج آماله . فرغب فى الانتظار والترقب .

بدأ الثلاثون بأن أمنوا الجميع وأرضوهم بقضائهم على الوشاة الخطرين ثم كفوا أنفسهم شر التحولات التى يمكن أن تقع بأن طلبوا الحماية من ليزاندريس وحينذاك أفصحوا عن رغبتهم فى « تطهير المدينة » ولم يسمح ترامينوس بأكثر من التطهير ولم يعاقب إلا الديمقراطيين البرزين . أما أقرتياس فقد عاد من منفاه طاوياً حنايا صدره على ضغن . فكان يعتبر كل من طالب بل كل من تمنى الدستور المنشود عدواً له . وأخيراً ، فإن الحماية الاسبرطية تخاطب غرائزه . لذلك حارب أقرتياس من وقع عليهم الاختيار من الأغنياء . واحتج ترامينوس على هـذا السلوك وحاك له الدسائس ثم طلب منه أن يعلن

أسماء من تكون لهم حقوق المواطنين فحدد أفريتياس عدد هؤلاء بثلاثة آلاف ـ ولكنه امتنع عن نشر الأسماء . وطفق ترامينوس يحتج ويلح فى الاحتجاج ولكن أفريتياس وفق إلى إصدار قانون يجعل للثلاثين سلطة إعدام كل من لا يوجد إسمه بين ثبت الثلاثة آلاف دون محاكمة واستصدر بعد ذلك قانونا آخرا يجرد كل من سعى ضد حكومة الأربعمائة من حقوقه السياسية . فأمكنه بذلك أن يتهم ترامينوس هذا الحذاء البالى ، على حد تعبيره ، الذى ارتدى جميع الأحزاب وخانها . وأخيرا تجرع ترامينوس كأس السم «فى صحة أفريتياس الحاذق» .

نشر أفريتياس بعد ذلك ثبتاً بأسماء الثلاثة آلاف وجرد باقى السكان أثر ذلك من الأسلحة واستمرت حوادث القتل ونزع الملكيات . وكان عدد من قتلوا فى عدة شهور ينوف على الخمسمائة ونفى عدد آخر لا حصر له : فكان ذلك بمثابة حماقة خرقاء . تجمع المنفيون فى كورنثوس وميغاريا وطيبة والتأموا تحت إمرة ترازيبولوس فاحتلوا فيلية ثم بيرية ـ وطالت الحرب بين الفريقين وزادت تقيدا وكان طبيعيا أن تتلاعب اسبرطة بالفريقين واستخدمت ليزاندريس وبوزنياس لتحقيق أغراضها وكان مصير كل من أفريتياس وخرميدس القتل فى معركة مونيخيه فى مايو عام ٤٠٣ ولكن السلام لم يعقد إلا فى سبتمبر من نفس السنة حينما تدخل بوزنياس فى الأمر . فأعيدت الديموقراطية وساد الجميع عفو شامل إلا من اشترك فى حكومة الثلاثين .

لم يعد لأفلاطون صديق غير سقراط . وقد حدث فى الفترة التى شن فيها

الثلاثون الحرب على أغنياء الأنفال أن أُمر سـقراط ، رغبة فى تعريض أكبر عدد ممكن من الرجال للخطر ، بالذهاب مع أربعة آخرين للقبض على ليون من سلاميا بغية إعدامه ـ ولـكن سـقراط لم يذعن للأمر ولم ينجه من انتقام الثلاثين إلا زوال دولتهم بعد ذلك بقليل . وقد استمر خلال هذا الحـكم وفى ظل الأحكام الأخرى كلها محتفظا بصراحته وظل على تلك الحال حتى بعد أن منعه أقرتياس من تعليم البيان وكان يرمى من وراء ذلك إلى إسكاته . هذا ولم تـكن لدى أفلاطون أسـباب يزوّر من أجلها من الحـكومة الجديدة تلك الحـكومة التى شملت الأدب بعفوها والتى راعت الاعتدال فى باقى المسائل . ومهما يكن من أمر انصرافه قليلا قليلا عن المشاركة فى الحـكومة مشاركة فعلية فإن اهتمامه كان لم يزل شديداً وكان قد أعد نفسه لمتابعة العمل فى السلام المشروع حينما حـدث ، ولم يكن فى الحسبان ، أن اتهم سقراط بالإلحاد أمام محكمة هلياست .

قام باتهام سقراط غنى نشط من بين أفراد حزب ترامينوس يدعى أنيتوس الذى نفى عام ٤٠٤ ـ والذى اشـترك مع ترامينوس فى إعادة الديموقراطية وعاون هـذا فى الاتهام مليتوس وليقونوس . « وتذهب شكواهم إلى القول بأن سـقراط متهم بعدم الإيمان بالآلهة التى تقدسها المدينة وبقوله بآلهة جديدة زيادة على أنه يفسد الشباب » . والواقع أن نقد سقراط الذى لا يتطرق إليه وهن وتهـكمه المستمر قد أوجد له أعداء فى كل مكان ؛ فأولوا « الإشارة الإلهية » و « الوحى » الذى قال عنه سـقراط أنه يرشده فى جميع الأمور

التى يتطرق إليه الشك فيها ، تأويلات مغرضه . أما من أرهقتهم الأوليغاركية فقد اتهموه بأنه كان أستاذ الكثير من الأرستقراطيين ومن بينهم القبيادس وأفريتياس وأنه قد دأب على السخرية من انتخابات القرعة وسيادة عدم الكفاءة ولعل الرغبة لم تكن لتصل إلى حد طلب القضاء عليه ولكن مظهره كان يذكر بماض لعين . وكان من الممكن أن يستعين بالهرب ، على التخلص من هذا الاتهام ولكنه أبى ذلك وهكذا وقف فى سن السبعين لأول مرة أمام القضاة .

ولم يهتم سقراط بالدفاع عن نفسه شاعراً بسمو حقه ونيل منحاه وبدلا من أن يناقش ويستسمح رغب فى مناقشة الأدلة وتفنيدها كما كان يفعل أمام تلاميذه. وأعلنت إدانته بأغلبية ضعيفة وطلب منه أن يحدد لنفسه عقوبة فطلب أن تكفل له الدولة معاشاً فى مجلس الشيوخ . ثم قبل بعد ذلك أن يؤدى غرامة قدرها ثلاثين جنيها بضمانة أفلاطون ونفر من أصدقائه الآخرين . ولقد سبب كبرياؤه المتزايد غضب قضاته فحكم عليه بالإعدام بأغلبية كانت فى هذه المرة أقوى بكثير من الأولى وزج به فى السجن حيث مكث شهراً حتى تسمح نهاية أعياد دولوس بتوقيع العقوبة وكان الهرب ميسرا للمتهم أثناء هذا الشهر حين كان يستقبل أصدقائه يوميا أضف إلى هذا أن العادات لم تكن تستنكر ذلك ولكنه رفض التخلص « كعبد مذنب » من الحكم الموقع عليه . وفى اليوم المحدد من شهر يونيو أو يوليو عام ٣٩٩ تجرع السم فى هدوء . ولم يشهد أفلاطون وفاته لمرض أقعده .

تمجيد سقراط

١ — سنين التريث والتأمل

نهض أفلاطون تغمره الدهشة والألم والتفزز ـ لقد تبددت أوهامه ، واختفت أعز صداقاته وبقى وحيداً أمام حطام من كان مثله الأعلى ـ فكان من المتعذر أن يفكر فى هذه الصدمة الأخيرة التى أتت على البقية الباقية من نفسه .

وكلما ارتاع قلبه ، زادت قسوته فى الحكم على اقريتياس يومًا بعد يوم إزاء طغيان الثلاثين . ولما لم يعد يتمثل وثن صباه إلا خلال حجاب من الفزع فقد قذف بنفسه بكل ما أوتى من قوة نحو سقراط الذى دلت حياته وكلماته ، على أن هناك بقية من منطق ، وبقية من عدل . ومما زاد فى جرح نفسه أن ير اقريتياس وخرميدس يلقيان حتفهما فى التطاحن الحزبى ، وأن المدينة التى لم تعد إليها الحياة إلا بعد موتهما قد نظرت إليهما نظرتها إلى المجرمين ؛ ولكنه اطمأن حينما رأى المنتصرين يحاولون النسيان ، ويسعون إلى التضامن ، وآمن بنهضة أثينا وبمستقبلها . وقد خدعت الأوليغاركية تمامًا حينما ظنَّت أنه سينضم فى غير حرج إلى الديموقراطية التى أُعيدت إلى الحكم ، وكانت متأهبة تمامًا لأن تثق به .

هاك ما وصلت إليه حكومة « ضحايا اقريتياس » : لقد قتلت فى وحشية وجنون الرجل الذى حاول اقريتياس عبثاً أن يلزمه الصمت ؛ والذى رفض ، فى ساعة حرجه ، أن يعادى أصدقائهم ويصبح من صنائع الطغيان ! لقد اتهموا سقراط بالإلحاد ، سقراط أعدل العادلين. وقد ذهبت توسلات أفلاطون أدراج الرياح : إذ رفض فارس الميدان الكهل أن يتنصل من الاتهام الماكر الخطر كما رفض أن يتنحى أو أن يستغل مهارته أمام قضاته ، ورفض كذلك أن يهرب فى وقت كان من السهل فيه أن تشترى حريته بقليل من المال . والله يعلم أن أفلاطون كان على أتم استعداد لأن يهب ثروته جميعاً ثمناً لها . وفى تلك اللحظة أقعد أفلاطون المرض ، ثم وقع الظلم. فقتلت أثينا كما سفهت الرجل الوحيد الذى كان فى مقدوره أن ينقذها إن كان لها أن تُنقذ . وحطمت الصداقة المقدسة التى احتمى فيها أفلاطون كما يحتمى فى وكر للعدالة والإيمان ، ماذا يفعل هنا إذن ؟ .. إنه مرتاع من أثينا ، ومن سياستها القائمة على العاطفة ومن أحزابها وثوراتها ، ومن جنوبها العاتى واعتدالها الماكر .. إنه يرغب فى الفرار .

لقد ذكروا له ما كان يعرفه مقدما من أن سقراط كان فى مماته بسيطاً نبيلاً كما كان فى حياته . ولنا أن نعتقد أن اقريتون الصديق الصدوق ورفيق صبا سقراط روى لأفلاطون بنفسه ما لم يقو هذا على رؤيته : من اجتماعات الأيام الأخيرة إلى الأيام الخالدة التى مضت كغيرها فى المحاورات الفلسفية والليل المخيم وخادم الأحد عشر إذ يعلن وهو يبكى أن الساعة قد دنت ،

والكأس الذى تناولته يد ثابته ، وسقراط إذ ينصح أصدقاءه بالهدوء والوقار بينما يفعل السم مفعوله ، وإذا بصوت اقريتون يتهدج رغماً عنه ، أثناء ذكر طريقته فى جمع آخر أحاديث سقراط ، فيغلق فمه ويغمض عينيه .

شهد اللحظات الأخيرة من حياة سقراط مع اقريتون وولده اقريتوبيل ، طلبة أثينيون متعددون يذكر منهم اشن من مقاطعة سفطس وانتستن ومنكسين . ومن الطيبين سميانس وقابس ، ومن الميغاريين اقليدس وتربسيون وكان انتستن ونفر آخرون على وشك مغادرة أثينا للذهاب إلى ميغاريا فى ذلك الحين . وكانت تهمة الإلحاد قد حركت ، كما قال اقريتون ، فى الشعب الهتاج الشكوك القديمة فى الفلاسفة « محتقرى الآلهة » . وكان طلبة سقراط معرّضين دائماً لإهانات الشعب . هذا من ناحية وكان يؤلم اقريتون من ناحية أخرى أن ير أفلاطون قريب اقريتياس وخرميدس ، معرضاً لمضايقات بل ولحقد القوم الذين طالما آذاهم الثلاثون . ولكن أفلاطون لم يفكر بتاتاً فى هذا الخطر بل كل ماهنالك أن ليس ثمة من عمل يقوم به هنا . لقد ذكر له اقريتون العجوز كل مايمكن أن يذكره ، ولكنه شعر بحاجة إلى مزيد من قصص عن سقراط ، لا عن سقراط فى مماته بالغاً ما بلغ من سمو ، بل عن سقراط الحى كما عرفه ورافقه ، وعن سقراط كما تصوره وتخيّله قبل أن يصبح تلميذاً له . وقد اختير إجابة لهذه الرغبة الملحة اقليدس الذى طالما تردّد عليه أفلاطون ومرعان ماشعر نحوه بود لم يشعر به نحو الآخرين فكان الأفضل إذن بالنسبة لأفلاطون أن يرحل إلى ميغاريا .

ما هى المدة التى قضاها هناك ؟ هذا ما لا نعرفه إذ أن رحلة ميغاريا ورحلة مصر وزيارة سيرينيا يشهد بصحتها تراث أهل للثقة . ولكن هذا الحكم لا يمكننا أن نطلقه على التفاصيل الروائية التى تضاف إلى هذا التراث . أما الشيء الذى نعلمه حق العلم فهو أن عملاً خصبا كان قد اكتمل فى فكر أفلاطون أثناء السنين الأولى التى تلت موت سقراط . كان عليه أن يقوم بعمل تقويم لحياته وللحياة السياسية الأثينية ، وأن يهجر آماله فى المشاركة السياسية ، وأن يتحول إلى دعوة من نوع آخر ، وأن يدرك الفكرة العامة والخطوط الرئيسية فى هذه السلسلة من المحاورات التى ستوقف على إحياء ذكرى سقراط . ونخشى أن نكون قصصيين إذا أردنا تخيل التواريخ الصحيحة والمراحل المختلفة والحوادث الخارجية لهذه الرحلات . ولكننا لا نفرض إلا فرضاً قريباً من الواقع وهو فى أغلب الظن ضرورى إذا ما تخيلنا أن ميغاريا ومصر وسرينيا كانت تمثل بالنسبة لأفلاطون مراحل فى التفكير تنشأ مع التنقل . فقد تبع تطور تفكيره منحنى رحلاته ولم يبعده هذا التفكير عن أثينا أولاً وقبل كل شيء إلا ليعيده إليها بفكرة أكثر وضوحًا عن المهمة التى تنتظره هناك .

وفى ميغاريا كان لإقليدس ومضيفيه الفراغ الكافى ليتذاكروا فيما بينهم حياة أستاذهم . كانت تلك الحياة قليلة الحوادث ولكن أقل الحوادث شأنا ، صار له معنى آخر فى ضوء الوفاة والاتهام . هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كانت حياة سقراط بأكملها مبثوثة فى محاوراته اليومية . وكلٌّ كان يحمل

ذكرياته . أما أفلاطون ، آخر من حضر من الطلبة فقد أصغى وحصل . وليس من شك فى أنه قد نشأت من وقت لآخر مناقشات هادئة تناولت تواريخ المحادثات وتسلسلها فضلاً عن التفاصيل الدقيقة فى شرح المحادثات وتقديرها. وجد أفلاطون فى ذلك ، وهو على أهبة المجادلات والمعارضات ، الفروق فى الطبع وفى التعليم وفى الثقافة . هذه الفروق التى لم يلاحظها إلا قليلاً فى صلاته العابرة بالطلبة الآخرين ؛ ومع أنه كان راغباً فى ألا يلقى إليها بالاً فقد ضجر منها كما يضجر من فوضى تحاول أن تنال عمله الذهنى بالتشويش ؛ إذ شعر بأن هذه الفوضى قد بدأت تعمل فى خبث فى الأحيان التى كان يريد أن يوجه فيها انتباهه إلى الروايات وإلى الشروح .

ثم أدرك ذات يوم أنه فى حاجة إلى الوحدة . أما أحاديث مضيفه عن الحياة التى سلكها قبل مقابلة سقراط وعن تجاربه العقلية المختلفة فأعجب بها من قبل إعجاباً شديداً . فقد شغل اقليدس بالفلسفة على الدوام . وتأثر مذهب برمنيدس بوجه خاص ولم يمنعه تقديسه الشديد لسقراط أن يظل مخلصا للكائن اللامتغير الذى تغنى به حكيم إيطاليا القديم . ولكن نفس أفلاطون كانت ممتلأة فى تلك اللحظة بأفكار أخرى .

ولم تكن الرحلة إلى مصر لتحول بينه وبين هذه الأفكار . وكانت رحلة سهلة نسبياً ، وكانت تكاليف السفر من بيريه إلى هناك ضئيلة جداً ؛ تبلغ درخمتين . جذبت مصر اليونانيين منذ زمن بعيد فرحلوا إليها جرياً وراء التجارة الرابحة ورغبة منهم فى اكتناه سر المجهول . ونحن نعلم أن سولون العظيم

صديق دروبيد الكبير قد أقام فى سايس بالدلتا حيث تحدث إليه الكهنة فى شيء من الافتخار عن قدم تراثهم . ويذكر أفلاطون ، فى شيخوخته ، زيادة على ذلك ، وكان مؤمناً بما حدَّث : « إننا نجد لديهم أعمال نقش ونحت ترجع إلى عشرة آلاف سنة » وكان يعتقد أن المشرّع اليونانى يمكنه : إذا حذا حذوهم أن ينظم ملاهى أى شعب وموسيقاه كذلك بحيث يمكنه إبعاد كل بدعة مفسدة . ولكن كل ذلك الذى رآه فى مصر مما جبل عليه سكانها من عدم إكرام الضيف ، ومن صلفهم فى الربح ، ومن تسلط طائفة الكهنة ، ومن الأساطير التى ترامت إلى أسماعه والتى تذوقتها روح الفنان فيه أكثر مما تذوقتها روح المفكر ، كل ذلك كان قد عرفه قبل أن يغادر أثينا . وقد جذب العالم الجديد؛ من شعب مزركش وآثار ومعابد وكهنة ، انتباهه الخارجى، ولعله لم يكن ليترك فى تأملاته العميقة إلا بقدر ما تتركه المتعة من أثر .

وفى عودته عرج على سرينيا ، حيث رغب فى مقابلة أحد أصدقاء سقراط الأقدمين وهو تيودورس الهندسى ، وكان قد عاد من أثينا عقب الاتهام المحزن بعد أن أقام فيها مدة طويلة تتبع خلالها أفلاطون دروسه من وقت لآخر . وقد لذ لأفلاطون أن ينصت إلى الحديث عن سقراط من ذلك العجوز الجذاب قبل أن يشرع فى العمل الذى أخذ يشعر الآن أنه مرتسم أمامه . وكان يربط بين هذا العجوز وبين سقراط قلب مخلص ورأى مشترك ينضح بالحقيقة وحب للشباب متبادل . وكان الرجل صديقاً لبروتاغوراس ومع هذا لم يكلف بالبيان أو بالجدل . وكان رياضيًا بالوراثة فأحدث تقدما كبيراً فى نظرية اللامعقولات

وأكسب طلبته حماسة وحرارة فى سبيل البحث والاستقصاء .

ولما ملّ أفلاطون الاغتراب وملّ المعابد والأسرار والتنبؤات أقبل فى شوق ، لبضعة أسابيع ، على هذه المحاضرات فى العلم الدقيق ؛ وكانت الحجج « التى تشبه الماس صلابة » تتعاقب مع ثقة الأستاذ القديم فى أعماله وفى تلاميذه أو مع ذكرياته الساذجة الباسمة فيما يتعلق بالذى شمرا فيما بينهما بحضوره الممتع . وأخيراً عاد أفلاطون أثناء سنة ٣٩٦ على وجه التقريب إلى أثينا تلك ، حين أيقن بأن ثمة عملا عليه أن يقوم به .

٢ — حقيقة سقراط

هز أفلاطون موت سقط هزة عنيفة، ولكنه لم يترأمامه السبيل إلا رويداً. فقد بدا له هذا الحادث كحلقات غير متصلة من ومضات قوية تلتمع فى وعيه من بعيد وبدت كما لو كانت ناشئة من أعماقة المجهولة . ولم يدر أية عاصفة تلك التى كانت تستفزه حينما كان ينصت فى هدوء وانتباه لروايات الطلبة . لقد رحل جائبا البلاد المجهولة لينفرد بالبلبلة التى أصابت أفكاره ، ثم أسلس قلبه له القياد كما أسلست له نفسه القياد رويداً رويداً عند ما هدأت البلبلة التى فى نفسه وتمخضت عن نور ساطع أضاء الظلمة التى شملت حياته والظلمة التى سادت العصر الذى يحيا فيه ، وكشف له كذلك عن سبيل وأمل محقق . بدا هذا الضوء الصارم المنان كما لو كان إشعاعاً ينبعث من حياة سقراط ومن موت سقراط .

لم يقتصر جهل حقيقة سقراط وبغضه واتهامه وإعدامه على انيتوس والديمقراطية الأثينية فحسب ، بل تعداهم إلى تجبر أثينا الأعمى بأسرها وتجبر رجال دولتها الأمجاد ؛ ومن على شاكلة القبيادس واقريتياس ، فى كلفهم المفرط للقوة وللمتعة ، وكذلك أشبال الارستقراطية ، وإلى السفسطائيين وعجرفتهم وهوايتهم التى تشترى بالمال ؛ والشعب بأسره مع قواده الفاسدين ومضلليه وخطبائه وشعرائه وقصصيه . لقد اتهموه جميعاً لأنهم شعروا أن حديثه وحياته إنما تضعهم موضع الاتهام : « فإذا كان سقراط رزيناً فى حديثه صادقاً فيما يقول فمعنى هـذا أن الحياة الإنسانية بأجمعها هى التى كانت مقلوبة رأساً على عقب وأننا نفعل عكس ما يجب أن نؤديه ، ولكنهم أبوا أن يروا حياتهم معكوسة » : لقد تردوا فى الجهل المطبق واستمروا مع ذلك فى اعتقادهم أنهم أكثر الناس معرفة . وطالما صدر عنهم هـذا القول فى سخرية « هذا الثرثار الشرير المعتوه » الذى يبحث بين السحب عن المعرفة والخير والعدالة الكاذبة والذى يزدرى جميع الحقائق التى يحياها عالم الشهادة .

كان سقراط على حق رغم هـذا ، فإن مجد أثينا كان يخفى وراءه شراً مستطيراً . وقد انفرج هذا الآن عن فساد وعن نكبة لأن الجميع رغبوا عن معرفته وعن علاجه ـ ما فائدة السفن الحربيـة والتحصينات والترسانات والأسلحة برمتها ؟ وما فائدة غزوات السيطرة وبسط السلطان وما فائدة كل هذا الكسب المادى الذى هو ثمرة ما يسمونه : « السياسة العليـا » إذا كان الشعب قد تُرك إلى جانب هذا كله يتردى فيما هو فيه من جهل ومن ظلم ؟..

أليست السياسة الحقة هى الكشف عن هذا الشر المستطير واستئصاله قبل أن يخرج ثماره المميتة ؟ .. كان سقراط وحده هو الذى وقف على هـــذا الشر فكان بذلك رجل الدولة الوحيد . أما الآخرون أمثال تيمستكلس وسيمونيس وبركليس نفسه ومن بعدهم أيضا ثلة الخطباء والموهون ، فلم يكونوا سوى متملقين ومفسدين . أما الأوليغاركيون والديمقراطيون والمعتدلون فلم يكونوا أحزابا بل كانوا أهواء مشتتة .

تلك هى المسائل التى لام أفلاطون نفسه على عدم فهمها خلال السنوات الثمان التى عرف فيها سقراط معرفة أدق متتبعاً محاوراته وطرائقه وحياته . أى حماس ذلك الذى شعر به وأية ومضات تلك التى كشفت له عن أسئله أستاذه المقلقة ! .. ولكنه قد عاش فى هـذا العصر الذى صبغه بروحه وبكل لفحاته ، ثم تسلط عليه نزق الشباب وأعماه . ذلك ما أدركه أخيراً ، متعثراً أول الأمر متنوراً بعد ذلك رويداً رويداً من درس الاتهام ومن درس الإعدام . وهذا ما يجب أن يعلّمه الآن لمدينة أثينا التى تاق إلى إنقاذها .

ولو أن أفلاطون فهم من المساهمة الفعلية فى إنقاذ المدينة أن يشارك فى السياسة العملية لكان هذا نزقا . فضلا عن أن هذا العمل لا يتم دون الاستناد إلى حزب أو جماعة سرية ... وأنّى له بجماعة من الأصدقاء يقبلون فعل شىء يختلف عن تلك السياسة المبتذلة : سياسة المنفعة والهوى والكبرياء ... ! وما كان ليجهل ذلك الخزى المخضب بالدم الذى يؤدى إليه هـــذا الضرب من السياسة . هـذا ولو أنه قام بالمحاولة الأخرى منفرداً فى مقابل عمل الشعب

وتعصب الأحزاب لكان نصيبه الموت العاجل من غير فائدة تجنيها الحقيقة . كلا ، إن من الأفضل أن تفرض تلك الحقيقة المشتملة على السلام على نحو آخر. يجب أن تؤتى أثينا من نقطة ضعفها ، من ناحية حب استطلاعها العقلى ومن ناحية حبها للهجاء وللروايات الهزلية ومن كلفها بالنقاش والمجادلات والحجاج. يجب أن نفزع كذلك إلى ما للحقيقة والعدالة من معنى عميق فلعل البؤس والخطيئة المتزايدان لم يمحياه بعد من قلب جمهور الأثنيين ـ وربما كان من الممكن أخيراً عن طريق الوضوح والسهولة والصراحة التى بعثتها رغبة صادقة شعر باصطراعها فى نفسه ، أقول ربما كان من الممكن عن هذا الطريق أن يؤلف بين نفر من شباب الأثينيين حول المنهج السقراطى يكون من بينهم من يخلّصون الوطن فى القريب العاجل .

لذلك ، ما كان لأفلاطون إلا أن يترك قلبه يفيض ، ذلك القلب الذى غمرته محاورات سقراط على النحو الذى عرف به أخيراً . كما غمرته شخصية سقراط وبدّلها الاستشهاد فتكشفت به وحده عن عظمتها الحقيقية ، ثم ذلك القلب الذى طفت عليه حياة ظلت محجوبة إلى أمد طويل وهى التى تبغ إلا التعبير عن نفسها فى الفعل وفى الخلق .

كان شاعراً ، لا تزال حرارة شبابه تضىء تفكيره الذى صقلته التجربة . كم هى جميلة تلك القصة التى صاغها فى مخيلته حول هـذا الدرس الحى أعنى التعليم السقراطى ! كان ماضى أثينا القريب ماضى أمس وما قبل أمس يحوى بذور هذا الدرس الحى أعنى بذور الأهوال أوقل الأهوال التى كانت على وشك

الوقوع ولـكنه كساها بسحابة من المجد تبدت فى .. شباب القبيادس المزدهر وحيوة أقريتياس الطموحة التى تشير إلى شىء ما وطفولة خرميدس المتواضعة ونيقياس ونضوجة السياسى والحزبى ومشاهير السفسطائيين فى شيخوختهم البراقة ثم من هم دونهم شهرة ممن يتنازعون ، من خلفهم ، الطلبة وبعـد الصيت ، وأخيراً صورة طفولته اللطيفة ، صـورة جمهور المراضات الفتى وهو يهرع بين درس وآخر ليشاهد سقراط ممسكا بتلابيب أحد تجار العلم هؤلاء . أى تباين فى المنظر ذلك الذى ارتسم فى غير دقة ثم تحدد واتضح ثم تمثل نهائيا فى ذهنه ، بين سـقراط وأولئك الأشرار من قادة أثينا من كهنة وقديسين وخطباء سفسطائيين وسياسين وولاة ! شعر أفلاطون بأن المسرح الذى طالما أحبه والـكوميديات الخفيفة والهجاء الماجن بل ومهازل خيال الظل فى السوق وذكريات شبابه الماكر العذبة ملاحظا فى خبث مفسراً فى سخرية ، العجائب التى تصادفه ، شعر أفلاطون بأن كل هـذا يصعد من أعماق مخيلته مصطحباً آثاره متجمعاً كى يهب الحـرارة والازدهار لنسيج محاوراته الذى لم يزل جافاً .

أما المذهب الذى غصت به المناقشات فى العلم وفى العدل والخير وكذلك حب الحقيقة المفرط الذى ظهر فى صورة عزيمة قوية أو فى صورة تهكم والضوء الذى غمر هذه المناقشات بالجمال إلى جانب الابتسام فى هدوء ، أو السخرية فى رفق اللتين لعبتا دورهما فى هذه المناقشات ، كل هـذا وجد منبعة فى شخصية سقراط الذى سـيطر على عمل أفلاطون كما سيطر على روحه من قبل . خلق

أفلاطون سقراطَ من جديد وإعادة إلى الحياة محققاً ، مستجوبا ، مفنداً ، هازئاً أو وقورا باشاً لنضارة الشباب كيما يكشفوا له عن نفوسهم مثيراً العجب والكبرياء فى السفسطائيين لكى يتفاخروا وتنتفخ أوداجهم فيجد فى ذلك خير وسيلة لرفع النقاب عن جهلهم الفاضح ، متخذاً الجهل وسيلة ، جاداً فى البحث عن الحقيقة لا لغاية إلا حب الحقيقة ثم مضحيا فى سبيل هذه الحقيقة حتى يصل إلى السجن وحتى يبلغ الموت . ولكن أفلاطون قد نسى نفسه وراء هذا البعث وذلك التمجيد السقراطى واختفى أثره فلم يَحْىَ ولم يكن له وجود . وكان فنانا مبدعا ضحى بنفسه فى سبيل روعة عمله . كان طالبا مخلصا أخفى نفسه لتظهر عظمة أستاذه فى أحسن صورها . وكان مفكرا خلّص الحقائق المعقولة من أى ظل أو أثر من آثاره الخاصة ، فهل تواتر إلى سمعه أن ذلك الموت الإرادى كان ثمن خلوده ؟ ..

٣ — المحاورات الأولى

عكف أفلاطون على العمل بمجرد عودته . وسرعان ما ذهلت أثينا أمام رواياته النثرية التى أخذت تتابع دون توقف تقريبا . . . ولكن ما هو النظام الذى ساد تأليف هذه المحاورات الأولى ، وما هو النظام الذى امتد حوالى خمسين سنة .. ـ هذا ما يعترف النقد الدقيق بعدم الوقوف على حقيقته حتى الآن. وقد وصل إلينا ذلك الإنتاج بأكمله بل وأضيفت إليه أشياء أخرى إذ يتكوّن هذا الإنتاج من اثنتين وأربعين محاورة بينها سبع وعشرون أو

ثمان وعشرون يسلّم الجميع بأنها صحيحة النسبة إلى أفلاطون ، وسبع ثبت منذ العصور القديمة نفسها أنها منتحلة . أما باقى المحاورات فلا تزال موضعاً للنقاش . وهناك أيضا تعريفات رغم كونها منتحلة تماما إلا أنها تحوى جزءاً كبيراً من التراث الأفلاطونى ، وكذلك ثلاث عشرة خطاب لا يوجه إليها النقد اليوم فى عنف وإن كان قد قضى عليها مدة طويلة بأنها منحولة بصفة قاطعة . وأقل ما يمكن قوله عن هذه الخطابات هو أن أحسنها حالا يزودنا ، فيما يتعلق بحياة أفلاطون ، بمعلومات لا يمكن أن تصدر إلا عنه ، أو عن تلاميذه المباشرين ـ فالخطاب السابع منها خليق فى مجموعه بأن يوضع فى مصاف محاورات العهد الأخير الكبيرة ، وتتوفر فى الخطاب الثامن نفس الاعتبارات التى تُرجع نسبته إلى أفلاطون .

أما الغاية التى نرمى إليها فهى تحديد الزمن التاريخى للمحاورات الصحيحة أو ترتيبها على أقل تقدير حسب تتابعها الزمنى ماوسعنا ذلك . فالنقد الحديث ، فى بحثه عن أساس أقل عرضة للتأثر بالأحكام الفردية ليسير عليه فى هذا الترتيب ، قد اعتبر محاورة القوانين التى تركها أفلاطون دون أن يتمها ممثلة لآخر ما وصلت إليه اللغة الأفلاطونية . وعلى هذا يمكن أن نقيس عليها المحاورات الأخرى بغية ترتيبها. وذلك بأن نبتعد، تبعاً لدرجة قرب المحاورات من أسلوب أفلاطون فى شيخوخته . ووصل هذا النقد إلى أن يرتب فى يقين مجموعة من المحاورات المتأخرة فى ضمنها السفسطائى والسياسى وفيليبوس ، ووتيماوس وأقريتياس والقوانين . وأمكنه أن يرتب فى أغلب الظن مجموعة

سابقة على المتأخرة وتتكون هذه المجموعة من الجمهورية وفدرس وبارمنيدس وتيتاوس . ويبذل هـذا النقد كل ما فى وسعه كى يصل إلى تكوين مجموعة متوسطة لا يزال تكوينها وترتيبها مذبذبا إلى حد كبير وهى على ذلك يمكن أن تتضمن مينون وفيدون والمأدبة وأيون وميتكسانس وأوديموس وأقراطاليوس .

ولكن اليقين فى هـذا المنهج يقل بطبيعة الحال كلما بعد الأسلوب عن أسلوب الشيخوخة الذى يعتبر محكا لذلك المنهج . نفهم من هذا أن من الصعب تحديد تاريخ محاورات الشباب، تبعاً لهذا المحك وحده فنضطر إلى الالتجاء إلى نظام من نوع آخر يفسح مجالا كبيراً للهوى والشك . فنحن فى هـذه الحالة إذن لا نزال أقل قدرة منا فى الأحوال الأخرى على أن نجزم بأن محاورة ما سبقت أخرى أو هى تالية عليهـا ولكن يمكن القول بصفة قريبة جداً من الحقيقة أن المجموعة المكونة من هبياس الأصغر والدفاع وأيثفرون وأقريتون وهبياس الأكبر وليزيس وخرميدس ولاخس وبروتاغوراس وجورجياس ، قد نشرت فى الفترة التى تقع بين رجوع أفلاطون إلى أثينا (عام ٣٩٦ تقريباً) وبين رحلته إلى إيطاليا (عام ٣٨٨) .

ومما لا شك فيه أن محاورة «الدفاع عن سقراط» هى بمثابة المقدمة المنطقية لهذه المجموعة من المحاورات . كان هذا الدفاع عن سقراط باعتباره متهما مقضياً عليه بالإعدام مهيض الكرامة ، وكان الرأى العام يؤمن بهذا القول : أن المتهم يكون مذنبا فى أغلب الأحيان ومن مات متهماً فهو مذنب إلى الأبد .

فإن لم يكن مذنباً ، أفلم يكن فى مقدوره أن يثبت ذلك وقد كانت مهنته الوحيدة المعروفة الكلام صبحاً وعشية ؟ ... ـ وإن كان التفنيد السقراطى الشهير قد صلح لشىء ما فلِمَ لَمْ يستخدم لإفحام متهميه كما كان يفحم يومياً أبطال السفسطائيين والخطباء والسياسيين الذين اختارهم ليكونوا ضحاياه ؟ ... ـ فإذا لم يقم بذلك ـ أليس فيه برهان على أن مهارته التى طالما امتدحها المادحون ليست إلا عبثا لفظيا وفناً للتلاعب بالكلمات ؟ . . ـ كان هذا المنهج جديراً بأن يفتن صغار الأغرار ولكنه لا يصلح لأن يخدع من يحيون حياة واقعية من الرجال . فإذا لم يعرف كيف يصوغ الكذب ليضلل قضاته فلِمَ لَمْ يفزع إلى العاطفة الإنسانية بأن يتضرع إليهم وأن يستثير شفقتهم بشكاواه التى كانت فى متناول يده والتى كان نجاحها مؤكداً والتى لم يزدرها من نازعه الشهرة ؟ كان متكبرا عنيدا واثقا من الأيام الطويلة التى قضاها دون عقوبة . فلم يكن ياهظا ذلك الثمن الذى دفعه ثمناً لتطاوله على الآلهة والنُظم والقوانين .

ستكون محاورات أفلاطون رداً على هذا الحكم السائد . فهى سلسلة مرافعات غير مباشرة وإقناعية إلى أقصى حد ، لأنها ستظهر براءة سقراط وكرمه من أفعاله . وحسناً كان الرد جملة على البهتان الذى بعد أن أودى بحياة سقراط جرّح ذكراه وسخر منها . أليست خير وسيلة لجعله دفاعا قويا هى أن يصدر على لسان المتهم ؟ ... ـ علينا إذن أن نعيد المقال الذى أدلى به أمام القضاة وأن نُضْفِى على هذا المقال دون تشويه ما للبيان من قدره خفية على الإيضاح وأن نحافظ دائما على بساطة الطريقة السقراطية وعلى عظمتها . وبذلك

تحول هذا المقال إلى عرض واضح للدور الذى لعبه سقراط فى حياته ولرسالته المقدسة وما قدمت يداه من خير لم تُقدّر قيمته ، ولمقاومته الحازمة للكوارث ثم لتضحيته التى ارتقت حتى بلغت الذروة ... هـذا عين ما فعله أفلاطون فى محاورته الموسومة « بالدفاع عن سقراط » .

أليس فى عجز سـقراط عن دفع الاتهام الأخير دليلا على أنه كان متهماً سلفاً ؟ ... ـ لقد تشبع قضاته منـذ نعومة أظفارهم بأكاذيب المسرح الذى صوره فى صورة سفسطائى ينقب فى السحب عن علم لا وجود له وفى صورة من يزدرى الآلهة . هب أنه كوّن من حوله عـدداً من الأعداء الذين أصبحوا يضمرون له البغض أفلم يكن هذا خضوعا لوحى الإله دلف ؟ . . ـ أعلن هذا الوحى أن سقراط أكثر الناس حكمة . فلما شعر بأنه لا يعرف شيئاً أخـذ يتردد على من يدعون الحـكمة من خطباء وساسة وشعراء وفنانين وانتهى بإقناعهم جميعاً بأنهم جهلاء . وخرج من ذلك بأن كل ماله من تفوق فى الحـكمة هو أن الآخرين لا يعرفون شيئا ويتوهمون المعرفة وإن له هو هـذا العلم على الأقل وهو معرفته بأنه لا يعرف شيئا . رغب القوم ، الذين كشف لهم عن خداع أنفسهم فى موته وازدادوا كرها له لأن من استمع إليـه من الشبان سَلَك مسلـكه فى أفحام المدعيين وفى أثارة الحفائظ .

وهكذا وجد ضحايا سقراط السبيل سيدة للانتقام فوجهوا إليه فى غيرما مشقة نفس الإشاعات التى شاعت ضد الفلاسفة . ولـكن، كيف رغب سقراط فى إفساد الشباب؟ .. ـ أليس من الجنون أفساد من تحيا بينهم سيما وأنا سنكون

أول من يكتوى بشرهم ؟ .. كيف تأتى لهم أن يتهموه بالشك فى الآلهة وهم يتهمونه فى نفس الوقت بإنصاته لصوت مقدس خفى ذلك الصوت الذى يسيّره ويؤيده ؟ ..

والواقع أن الخطر الحقيقى لم يكن فى ثنايا تلك الصيغ المتناقضة التى اختلقها بكل وقاحة كل من انتيوس وميليتوس . ولكن كان الخطر يكمن فى غضب الشعب الأزرق الذى سبب هلاك الكثير من الممتازين والذى سيسبب هلاك سقراط بدوره . ألم يكن تعنتاً جنونياً أن يصمم سقراط فى مثل هذه السن على ذلك السلوك الذى عرّضه للموت ؟ .. إن كان ذلك فعلينا أن نسم الأبطال وأنصاف الآلهة بالجنون أولئك الذين يفضلون الموت على المذلة . إن سقراط الذى واجه الموت فى ساحات القتال إطاعة لأوامر بلاده ، سوف لا يعصى الوحى ويفر من سجنه لأن الفرار شر . إن رسالته إصلاح البشر وسوف لا يقلع عن هذه الرسالة . لقد تقبّل هذه الرسالة من أجل إصلاح أثينا ، فإن أهلكوه فالله قدير على أن يرسل فرداً آخراً ، إن كان لا يرضيه أن ير أثينا تتردّى فى الشر وتخلد فيه . هذا الفرد سيمتنع مثله عن المشاركة فى السياسة الفعلية لأن كل من التمس نفعاً عن هذا الطريق لقى حتفه سريعاً . صمد سقراط للظلم سواء فى عهد الثلاثين أو فى عهد الديمقراطيين . فلم يعترف على الإطلاق بأنه مذنب ولم يتزلف قضاته . لقد اتهموه ؟ .. فليكن ! . أما الغرامة فقد قبلها بعد لأى لأن أفلاطون واقريطون واقريطوليوس وابولودوروس سيؤدونها عنه .

ولـكنه لا يستحق فى الواقع إلا أن يعيش على نفقة الدولة فى مجلس الشيوخ باعتباره مصلحاً للمدينة . أيحكم عليه بالنفى؟ بتاتاً! .. فـكيف تتحمل نقده بلاد غير بلاده فى حين أن هذه الأخيرة لم تطقه ؟ .. أما أن يحيا دون إعْمَال فِـكْرِه فليست هذه حياة . فالموت إذن سيكون مصيره ، وقد تقبله سقراط دون وجل. سوف لايفرق الموت الأثينيين وسيكون لديهم بعـد اختفائه نقد آخر يفوق الأول شباباً وقسوة ، بل ان الموت هو الدعة فى نوم لا تشوبه رؤيا أو أمل فتان . ستكون الإقامة فى العالم الآخر الذى يسكنه القضاة العادلون والأبطال الأقدمون.. خيرُ دار له . فما كانت الحياة وما كان الموت ليسئا إلى رجل الخير.

٤ — جورجياس أو العلم الضرورى الوحيد

يمكننا أن نقول أن فقرة واحدة من محاورة الدفاع تلخص المنهج الذى يبدو أن المحاورات الأولى أرادت استيعابه . شرع سقراط ، لـكى يقف على معنى وحى دلفوس ، فى القيام بجولة نقدية تتناول استجواب جميع قوادالمدينة كل بدوره وإقناعهم بالنقص . وكانت فصول هـذه الجولة المتباينة ، فصولاً متنوعة من رواية اختلطت فيها المآسى بالمهازل ، هى التى أخذ أفلاطون يقذف بها الواحدة تلو الأخرى إلى الجمهور الأثينى .

فى محاورة لاخس سخر من سلامة النية المعتادة العاجزة التى نراها عنـد الممتازين من الناس . والدان نبيلان يظهران فى هذه المحاورة جادان فى البحث عن وسيلة لتنشئة ابنيهما اللذين يحملان اسمى جديهما فيوسيديد وارستيد .

وهذا كل ما أمكن الأبوان أن يهباه ابنيهما مع ذكريات عن الأسرة براقة . وهكذا عجز أعلام الدولة عن أن يجعلوا من أبنائهم شيئاً آخر غير مجرد . فاكهة فجة . ولما طُلب من القائدين الشهيرين نقياس ولاخس أن يدلوا برأيهما فيما يختص بخير وسيلة لتربية هذين الشابين تعذر عليهما تماما أن يكوّنا رأياً واضحاً ، بل كان من الواجب أن يرسلا نفسيهما إلى المدرسة . وقدمت محاورة ايتيفرون عرّافاً شهيراً يتحكم حسب هواه فى معتقدات الجمهور ويعلمهم احترام الآلهة ولكنه لا يفسر ماهية الدين وماهية التعبد . وفى المحاورات الشيّقة هبياس الأصغر وهبياس الأكبر وبروتاغوراس وجورجياس يظهر السفسطائيون والخطباء وهم يغدقون فى وعودهم ويظهرون فصاحتهم ، ثم يستجوبهم سقراط ويعيدهم فى مهارة إلى موضوع الحديث فى كل مرة يشطحون فيها ، وعبثاً يحاولون ستر جهلهم .

ولم يبد أى أثر مدرسى فى النسج المنطق المحكم لهذه المؤلفات . فوجد الأثينيون المولعون بالمسرح فيها أنواع الروايات على اختلافها ابتداء من الدعابة بين شخصين من جنس أضاحيك الألاعيب كما نرى فى هيبياس الأكبر ، إلى الكوميديا فى أسمى معانيها كما تقدّمها محاورة بروتاغوراس حيث يظهر أعلام السفسطائيين على المسرح بمجرد الانتهاء من ديباجة المحاورة فيأخذ كل منهم فى الخطابة وسط حلقة مستمعيه دون أن تفوته مراقبة الحلقات الأخرى . ثم يجتمعون بعد ذلك للنقاش حيث تسمح ثنايا الحديث وسكناته لكل شخصية سواء صغرت أم كبرت بأن تعرض نفسها وتقوم بدورها . وفى المهازل وفى

الكوميديات المتزنة على السواء يشعر القارئ بحركة حيوية وبتكوّن مُسئلة لها خطورة عظمى . وفى كوميديا الصراع الموسومة جورجياس يتزايد الانفعال من فصل إلى آخر حتى يبلغ أعلى درجة من درجات المأساة وتُصاغ المسئلة الخطيرة حقاً على هذا النحو ، «إلى من نعهد بنفوسنا وبنفس المدينة ؟ .. ماهو الشيء الوحيد الضرورى وأى خطة توصلنا إلى اليقين فيه ؟.. من يخلصنا ؟.»

وضعت هـذه المسألة فى مستهل محاورة بروتاغوراس كما لو كانت وعيداً منذراً . سأل سقراط ، الفتى هيبوقراط الذى حضر مسرعاً يوقظه فى الصباح الباكر طالباً فى شوق أن يقدمه لأحد كبار السفسطائيين ، إن كان يدرى مقدار الخطر الذى سيعرض نفسه له . فمن يكون ذلك الرجل الذى جهل عنه كل شيء خلا اسمه ومجده الرنان ؟ .. إنه تاجر وسمسار علوم . أيشترى غذاء روحه على هذا النحو من أول شخص يقابله . أليس فى ذلك «مقامرة بحياته» ؟ يجلب غذاء الجسم فى وعاء ومن الميسور فحصه فى المنزل ، أما غذاء الروح فإنا نتقبله مرة فى العمر وبمجرد تقبله لايسعنا أن نتناوله أو نطرحه .. فقد ركب فينا إن خيراً وإن شراً . وفى قلب المحاورة يتابع سقراط ، وفى كثير من الدهاء ، مع بروتاغوراس المتملّص ، مناقشة تؤدى إلى نفس السؤال من أين يأتينا السلام ؟ .. وإذا سلمنا مع بروتاغوراس بأن السعادة ليست إلا قدراً معقولا من اللذات ، ألسنا محتاجين أيضاً فى تعيين هذا القدر إلى علم بالمقاييس ؟ أعلن سقراط أن العلم سامٍ فى رأيه . فما من شيء يمكن أن يستظهر عليه ، وفيه وحده يجب أن نبحث عن السلام الذى ننشده .

ولـكن أى علم ؟ .. إن أقوى اتجاهات العصر لتجيب « إنه البيان » ، ومن العبث أن نبحث خارج نطاقه عن خطط معقدة كثيرة التفصيل ، وأن نفنى حياتنا فى السعى وراء حقيقة لا يمكن الوصول إليها . إن الخطة التى تخلصنا هى التى تجعل منا أسياداً لعقائد البشر . والبيان آلة الإقناع التى لا تفشل ، والعـلم الدقيق المضنى ليس من شأن البيان فى شىء ، وبفضله سيكون من لا يعرف أكثر انقياداً ممن يعرف ، ولما كان البيان سيداً للعقيدة فقد أمسك بسبل السلطان . إن البيان ليس سلاحًا للدفاع فحسب بل هو سلاح للهجوم كذلك . فهو يكفل إذن لمن يجيد استعماله قدرة كاملة فى المدينة لأنه يوجد العدالة الحقة والقوة ويدير أو يعكس العقبات الشرعيـة الخاسئة التى يخيل لجمهور الضعفاء إقامتها فى وجه الأقوياء . إن الإعراض عن البيان والسعى عن طريق علماء يجادلون بالباطل لإيجاد حقيقة وعدالة عالية لا يعلم أحد كنههما والتظاهر بحب الحـكمة وبذل العمر فى التهامس فى مكان قصى مع نفر قليل من الشبان ليس هذا كله مسلك رجل فى الحياة بل هذا مسلك جدير بالعبيد ، إنه إعداد لارتعاد الفرائص وانفراج الشدقين والخضوع مقدماً لـكل ضروب التنكيل إذا قادت الظروف المرء إلى الظهور فى ساحة القضاء .

تلك هى النظرية التى عرضها وحاربها أفلاطون فى محاورة جورجياس . لقد قسم تلك النظرية إلى ثلاثة صيغ متتالية : « إن البيان آلة الإقناع » فمن الذى يستطيع أن يبسط هذا المبحث خيراً من جورجياس المتخصص فى سحر الـكلام ؟ . . يذكر تلميذه بولس الفِلْو المتحمس الوقح فى سفه غايات هـذا

الإقناع ويتشدق بأن البيان آلة القدرة التامة وخالق لتلك المتعة القصوى أعنى « الطغيان » . وأخيراً ، يعلن الأوليغاركى خالقليس النبيل المثقف الدمث أحياناً الفظّ فى أحيان أخرى أن الحق للقوة ، ويكشف عن التعارض الأساسى بين الطبيعة والقانون ويبيّن وجه الدهاء فى ذلك القانون حيث تكاتف الضعفاء لاستعباد الأشبال عن طريق مذاهب كلها أفك وبهتان،لقد تمنى بكل جوارحه أن يولد الإنسان الكامل ليهشم كل قواعد العدالة والمساواة ويعود إلى « حق الطبيعة » إلى القوة الهائلة الجبارة . هل نشر أفلاطون هذه المحاورة رداً على تلك الرسالة الباطلة «اتهام سقراط» التى كتبها يقيناً بعد سنة٣٩٣ بوليقراتس السفسطائى ؟ .. قد يكون ذلك ، ولكن من المؤكد أن أفلاطون إذا لم يكن قد وقع على تلك الرسالة التشنيعية فقد عثر على كثير غيرها مما دفعه إلى تأليف تلك الرواية الشيقة فى الأخلاق الإنسانية ليجمع فى هذا المؤلف القوى الأفكار الخطيرة التى تفسر أمام عينيه انحلال الروح العامة وتفسر منهاج السياسة الأثينية الضال . يجعل أفلاطون هذه الأفكار الخطيرة فى مقابل الحقيقة التى حياها سقراط ودافع عنها وفى مقابل المثال الأعلى الذى أخذ على نفسه تقديسه . فكانت محاورة جورجياس بمثابة دفاع وخطة للسير .

ليس للخطباء الحق فى أن يسخروا مطلقاً من سقراط لأنه وقف حياته على البحث عن علم كلى ضرورى وليس لهم أن يسخروا من عجزه أمام اتهام جائر . أيدعى البيان أنه علم : ليس البيان إلا مهارة رخيصة وفناً للتملق . ولكنه يضمن القدرة ؟ .. نعم ، بالنسبة لأولئك الذين يعبدون القوة ويتملقون

الطاغية أن كان حاكما فرداً أو جمهوراً مستقلا ـ ولكى يسايروا الظلم المتغلب جعلوا من أنفسهم ، قوما ظالمين. إنها لبضاعة رخيصة : أن نزرع الفتن لنحصد النجاة .. بل خير لنا أن نتحمل الظلم من أن نرتكب الضلال .

هل القوة إذن كسب ؟ .. ـ هل السعادة هى حق القوى الذى أشاد بذكره خالقليس وهل هى قدرة الإنسان التامة وتزايد رغباته ومتعته تزايداً لا حد له ؟ .. ـ أليس حق القوة على النقيض من ذلك جنون معتل منغّص من حك قروحه ؟ .. ـ إن السعادة هى الخير والخير سواء أكان خير النفس أو خير المدينة أو كائنا ما كان فهو النظام والانسجام الداخلى والتوافق والخضوع للغاية التى نسعى إليها .

أن كان الظلم قد بدا منتصراً ، فيماذكرنا ، فلنوقن أن الموت الذى يكشف عن النفوس سيورث الأشرار بؤساً دفيناً ، فالسعادة لأولئك الذين يقابلون الموت بقلوب طاهرة ، والشقاء لمن يخلدهم الموت فى ظلمهم ! ..

٥ — الرحلة إلى إيطاليا

وتأسيس الأكاديمية

كل شىء يحمل على الاعتقاد أن نجاح المحاورات لم يكن مجرد نجاح فى عالم التأليف ، فقد وجهت المحاورات الشباب الأثينى الوجهة التى كان يرجوها أفلاطون . ولقد اختار أفلاطون ذلك الضرب من الحياة الذى سخر منه فى عنف ممثل الأوليغاركيين فى اللحظة التى أخذ فيها النقاش يبلغ أشده بين سقراط

وخاليقليس بصدد التقابل بين البيان والفلسفة . لقد قرر أفلاطون أن يفر مدة طويلة إن لم يكن إلى الأبد، من المنتديات الأثينية ومجتماعتها ومجادلاتها السياسية وأن يختفى فى موت ظاهرى .. باذلا حياته فى التهامس فى مكان قصى مع نفر قليل من الشبان .. وكان فى سبيل تكوين جماعة منظمة من حوله، يمكنه أن يعهد إليها بالسياسة الوحيدة للسلام : سيكوّن شبابا خالص النية متحمساً ثابت العزم ، عن طريق الدرس والتأمل المشترك فى ذلك العمل النبيل وهو إعادة تنظيم المدينة على أسس من العدالة والقانون . كان وضع هذه الأسس فى ذهن أفلاطون كما كان فى ذهن سقراط ، مهمة علم العلوم . هذا العلم الأسمى الذى تتجه نحوه الفروع الأخرى اتجاهها نحو كمالها وغايتها هو العلم بالخير ، وهوفى نفس الوقت أخلاق خاصة وأخلاق عامة واسمه الحقيق علم السياسة . وتميزه محاورة جورجياس بأن تجعله فى مقابل تقليده الخدّاع أعنى البيان الذى أقحمه السفسطائيون فى عمل السياسيين . إن هذا العلم لايصدر عن التعوّد والذاكرة والتخمين بل يستخلص عن طريق الاستدلال . وهو يقيم وزنا لما يرتكن عليه ويتقدم عن طريق الحد والبرهان واستخلاص النتائج ويربط بين أسبابه « بروابط من حديد ومن ماس » . إن الفكرة التى تذهب إلى أن العدالة الهندسية هى العدالة المثلى لدى الآلهة كما هى الحال لدى الإنسان ، والاستعانة بالعلماء الذين يقولون بأن الأرض والسماء ، والبشر والآلهة ، يربطها توافق تام والذين ينظرون إلى العالم تبعاً لذلك كأنه تأليف متجانس ، كوزموس ، إن هذا وذاك ينير لنا السبيل الذى يجب أن نلتمس فيه نموذج ذلك العلم . أدرك

أفلاطون ، تلميذ وصديق تيودوروس من سيرينيا ، أن المقتضيات السقراطية للفكرة الواضحة والمعرفة التى لا تخطىء تفرض على عـلم الخير اتباع المناهج والدقة الرياضية .

كان فى إيطاليا الجنوبية فى ذلك الحين «رياضى» ذائع الصيت كان يجمع فى شخصيته جمعا تاماً بين مواهب العالم ومواهب رجـل الدولة هو أرخيتاس أحـد مؤسسى الميكانيكا العلمية وعلم الصوت وهو كذلك كما يذكر أرسطو ، أحد أولئك الباحثين الذين « سمّو بالفيثاغوريين» . والواقع أن هؤلاء لم يرثوا ما يزعمونه من تعاليم سرّية عن حكيم ساموس وأقريتونيا ولـكنهم مجاراة للروح التى سادت الأدب فى ذلك الوقت أحبو أن يُكسبوا مذاهبهم ماللعصور القديمة من تأثير فاختفوا بطبيعة الحال فى مدينة التراث الأورفى والفيثاغورى، تحت ذلك الإسم الساحر الذى أصبح أسطورة منـذ أمد طويل ، أعنى إسم فيثاغورس . كان أرخيتاس يناهز أفلاطون السن ويجب أن يكون قد مات قبله بعشرين عام وعلى وجه التقريب ، عام ٣٦٥ . عاش فى مدينة تورينا فى شمال ذلك الخليج الذى تحيط به مدناً شهيرة فى تاريخ الفيثاغورية والأورفية كمدينة متابونتس وسيباريس وبتليا وكروتون . كان سياسياً قديراً وقائداً موفقاً تولى الحـكم سبع مرات رغماً عن القاعدة التى تحظر على المواطنين فى تورينا أن يتقلدوا هذا الشرف أكثر من مرة واحدة : وحكم فى مسقط رأسه ، كما فعل بركليس ، حكما مطلقا فى الواقع دون الظاهر . ومهما يكن من أمر الظروف

الحقيقية التى قادت أفلاطون إليه فإن مقابلة حاكم فيلسوف رياضى قد تجاوبت، فى تلك اللحظة ، مع تمنياته الحقة .

كانت مدينة الباحثين عن السلام هذه تنبض بالحياة الماجنة كذلك . وقد حافظت سيباريس على شهرتها ولكن تورينا نفسها ، كما يروى أفلاطون فى محاورة القوانين، كانت غارقة بأسرها فى السكر طيلة أعياد ديونيسوس. وسيرى أكثر من ذلك فى سيراقوزا : من موائد لا ترفع وأفراط فى المأكل والمشرب، ذلكم ما قدّمته له ، بادئ بدئ ، مدينة الطاغية دنيس الأول وما حباه به قصرُه .

مزقت الأحزاب سيراقوزا بعد أن انتصرت على الغزو أثينا بفضل غيرة هرموقراط الذى دافع عنها وبفضل مساعدات لأقيدومونيا الفعّالة . ثم أقصى هرموقراط وقامت ديمقراطية متطرفة . لم تتمكن من الحيلولة بين القرطاجنيين، العدو التالد ، وتدمير سيلينونتا وهيميرا واغتصاب أجريجانتا فى آخر الأمر . وقتل هرموقراط فى محاولته دخول سيراقوزا عنوة بعد أن كان قد قام بحرب ضد القرطاجنيين على نفقته الخاصة . واستغل دنيس ، أحد أنصار هرموقراط الفتيان ، ثورة النفوس التى أحدثها سقوط أجريجانتا فتقلد السلطة ثم أصبح الحاكم الوحيد واستطاع ، بطريق المناورات أن يركز كل القوى الفعلية فى شخصه .

وفى عام ٣٨٨ هذا ، وبعد سبعة عشر عاما من حكم الطغيان ، كان قد انتهى من إقصاء القرطاجنيين فى الطرف الغربى من صقلية وجعل الجزيرة

بأكملها على وجه التقريب تحت حماية سيراقوزا بل وتقـــدم زيادة على ذلك بفتوحاته فى إيطاليا الجنوبية وكان نفوذه قد قوى فى اليونان بأسرها فأخذ يمد العدة لتقوية ذلك النفوذ ، خدمة لإطماعه الشاسعة ، بأن يشترك فى الألعاب الأوليمبية التى تقام فى الخريف القادم . وفى هـذه اللحظة التمس منه صهره ديون ، الذى كان رئيساً لوزرائه والذى لم تنقطع رغم ذلك صلته بحكام تورينا أن يدعو أفلاطون للحضور .

لم يتمكن هذا ، يقيناً ، من التنبؤ بالنتائج البعيدة لتلك الرحلة ؛ النتائج التى جعلت من تاريخ صقلية تاريخا لحياته إلى حـد ما . ولـكن مقابلة طاغية من شاكلة دنيس اتفقت مع ما كان يخامره من أفـكار كالحال فى مقابلة رجل الدولة الفيلسوف أرخيتاس إن لم تـكن قد زادت على ذلك . تشهد الرسالة السابعة على صحة ما تدفعنا محاورة جورجياس إلى افتراضه ، ففى اللحظة التى زار فيها أفلاطون إيطاليا وصقلية للمرة الأولى كان قد أدرك تماماً رسالته فى الحياة ، وكان قد وضح فى نفسه منذ ذلك الحين المبدأ الذى تفصّله محاورة الجمهورية : « لن يسود السلام المدن إلا إذا أمسك الفلاسفة بزمام السلطة، أو أن يتحول من بيدهم السلطة من الرجال إلى الفلسفة الحقيقية » .

لم يفكر أفلاطون مطلقا فى محاولة إدخال حكم الفلسفة بالقوة فى مدينته الخاصة أثينا . ولم يؤلف محاورة أقريتون إلا ليظهر فى سقراط ، ويذكر على لسانه احترام قوانين البلاد احتراماً مطلقاً . فعلى كل مواطن غـير قادر على إصلاح بلاده بالوسائل المشروعة أن يلزم الطاعة والصمت . أما العنف فهو

عقوق بالنسبة للوطن كما هو عقوق بالنسبة للوالدين . فلم تكن لدى أفلاطون إذن فكرة أخرى حين ألف جورجياس ألا أن يكوّن أثناء الدرس أو أثناء الفراغ القادة الذين يحملون الأثينيين ، حين تسنح الظروف ، على قبول هذا النموذج من الاستبدادية المتنورة . ولكن أليس من الميسور أن نفيد من العنف القائم فى الأماكن الأخرى وأن نختبر فى هذه البلاد التى ستكون ميدانا للتجربة ، المستبدين الموجودين ؟ . . ـ ذلك هو المجهود المزدوج الذى شغل أفلاطون مدى حياته .

على أى صورة حاول هذا الإصلاح بالنسبة لدنيس ؟ . . ـ وهل كان فى حاجة إلى أن يجرى هذه المحاولة على نحو خاص حتى يثير غضب الطاغية ؟ . . ـ ألم يكتف هذا الأخير برؤية الحالم ، الذى كتب فى محاورته جورجياس صفحات دامية عن أركيلاوس طاغية مقدونيا ، يؤثر بسرعة فائقة فى دنيس الصغير ؟ . . ـ فكان أن اضطر أفلاطون ذات يوم إلى الإبحار على سفينة لاقدومونية وكانت اسبرطة فى حرب مع أثينا منذ عام ٣٩٥ واتخذ أسطولها أجينا قاعدة له وكان يشرف من هناك على ميناء بيريه ويقلق شواطىء أتيكا. ولما نزل أفلاطون فى هذه الجزيرة المعادية لأثينا بيع بيع الرقيق . واشتراه لحسن الحظ أنسيريس من سرينا فأعاده إلى أصدقائه وإلى الفلسفة .

وعلى الرغم من أنه طرد من بلاط سيراقوزا على هذا النحو من الفجة فقد رحل منتصراً إلى حد ما إذ ترك أحد حلفائه فى مكانه . عمل أفلاطون دون قصد ، كما يذكر ، بتحويله ديون إلى أفكاره الإصلاحية ، على تحطيم

الطغيان ، ذلك لأن الأمير الصغير سيحيا ، وسط الفساد الذى يحوطه مشايعاً للفلسفة . وكانت صداقة الأمير بالنسبة لأفلاطون ، منبعا للسرور الغزير ولآمال فشلت تمام الفشل . فلئن لم يتمكن من تحقيق المدينة الكاملة التى تمناها حتى عن طريق ذلك التلميذ المتحمس المخلص فلعل هذا السرور وتلك الآمال أن تساعده فى جو الأكاديمية الصامت على العمل البطىء فى التعليم والخلق الأدبى . ذلك العمل الذى يجب وأن يكون قد أكد لحلمه أثراً يتضاعف فى الزمان والمكان .

أعجب أفلاطون فى إيطاليا بالأخاء القائم على أسس عملية الذى استحدثه الفيثاغوريون فرغب ، حين عودته ، فى أن يهب المجادلات التى كان قد بدأها منذ فترة من الزمان مع الطالبة الذين جذبتهم محاوراته ، شكلا ثابتا وتكويناً منتظما . فألف فى حدود القانون ، جماعة دينية ، وجمعها فى مكان صغير مقدس موقوف على آلهة الشعر ، فى الحديقة التى تحيط بملعب الأكاديمية فى الشمال الغربى من أثينا على بعد ستة فراسخ تقريبا من باب ديبيلون . ثم أصبح المكان المقدس والأرض المحيطة به ملكا لما يمكننا أن نطلق عليه منذ ذلك الحين مدرسة الأكاديمية . أما بالنسبة لغرضها فكانت شيئا شبيها بمدرسة للعلوم السياسية ، وأما بالنسبة لتكوينها فكانت شيئا شبيها بمدرسة دينية على درجة من الاتساع ينضم إليها الأعضاء دون قيد ولا شرط ولكنهم يعملون عادة فى تكوينهم الأخلاق والعلمى من حول أستاذ يوجه العمل ويمنع الشطط . كان المرمى البعيد إصلاح المدينة أما المرمى المباشر فكان إصلاح النفوس عن طريق التطهير الذهنى والبحث العلمى والتقدم الحثيث نحو الحقيقة الكلية .

العلم المثالى

١ — الحقائق المعقولة

وضع أفلاطون نصب عينيه أن ثمة حقيقة . أليست هذه هى العقيدة التى بعثت الحياة فى نقد سقراط الدائم وسعيه وراء الفكرة الواضحة وتشدده فى إيجاد التعريف الثابت المحدد الذى يستخدم قاعدة للفعل الإنسانى معترفاً بها من الجميع ؟.. ألم يكن فى سبيل حقيقة كهذه وعدالة غير معتمدة على هوى الأفراد وقاعدة لا تتغير بتغير الأفكار ، أن ضحى سقراط أخيراً بحياته ؟ . إن الذى سمم المدينة فكرة مؤداها أن الفرد مقياس كل حقيقة وكل قانون كما هو مقياس لا حساسة باللذة والألم : فعقيدته ورغبته وفعله تخلق قانون الأشياء وكيانها كما تخلق قانون المجتمعات وكيانها فما من شىء إلا ويصدر عن نفسه وعن إرادته . فإن أردنا فى وقت ما أن نصلح الحياة العامة وجب أولا أن نصلح الأذهان فنوجهها من أجل ذلك نحو محور ثابت ونعيد فكرة الحقيقة إليها ونبعث فيها من جديد حب الحقيقة الذى لا يقهر .

زاول أفلاطون هـــذا العمل فى الإصلاح الذهنى عن طريق تعليمه فى الأكاديمية وعن طريق محاوراته . فهل يتطرق إلى نفوسنا شك إذا ما قسنا محصول أفلاطون ومنهاجه فى تعاليمه على محصول ومنهاج أعماله المكتوبة ؟

كان النسق المتشابه الذى سار عليه هذا الإنتاج الأدبى فى الفترة بين تأسيس الأكاديمية وبين رحلة صقلية الثانية مثلا (٣٨٨ ـ ٣٦٦) كاف لأن يطمئننا (على صدق هذا القياس). فلم تنضب مادة المحاورات إن لم تكن قد صارت أكثر اتساعا وأكمل شكلا وادسم مذهبا . والواقع أن هذه المحاورات تعتبر أصدق معبر عما كان يحدث فى المدرسة : فكانت تحافظ على التجانس بين قلوب الطلبة وكانت تحمل إلى المطالعين الخارجين هتافات تستميلهم وقد تقودهم يومًا إلى العتبة الخارجية .

فلا بأس علينا إذن إن تركنا أنفسنا تذهب مع فتنة هذه الدروس الروائية ولنقرر أن حديث الأستاذ فى الدروس الداخلية على شدة عمقه، بالنسبة لنضج الطلبة وحسن تكوينهم ، زاده زخراً ما كان يسوده من حياة ونزعة شعرية . ويذكر لنا ذلك أفلاطون نفسه الذى احتفظ عمله الأدبى ، خلال الأجيال ، بومضة فكره الحية : إن الدرس المكتوب كالتمثال الجامد لا يملك إيضاحا ولا حجاجا ، ولكن الحديث الذى نبث العلم فى ثناياه لا يكون بمثابة الصنم فى قلب الطالب بل هو حياة وهو روح .. تمثل الشك الجورجياسى وتمثلت النسبية البروتاغورسية على الأخص بشكل جلى فى صيغة الفعل الإنسانى الذى يصل إلى أقصى درجات الحرية والخلق . ويحفر أفلاطون إلى أعماق بعيدة حتى يتمكن من إظهارهما « جورجياس وبروتاغوراس » متشبثين بأطراف واهية فى لجة تصور ميتافيزيقى عام عن طبيعة الأشياء . فهو يكشف لنا فى بروتاغوراس عن تلميذ لهرقليطس ابتداء من محاورة اقراطليوس . فإن قال

الأول أن « الإنسان الذى أكونه مقياس للوجود والحقيقة والأشياء كما تبدو لى ، هى كذلك فى الحقيقة لأن وجودها فى أية لحظة ليس سوى ماتبدو عليه » فإن الآخر قد أعلن أن « الأشياء جميعًا ليست سوى صيرورة وسيّال دائم ، فما من شىء يبقى على حاله وما من شىء يوجد ، عدا هذا القانون ، إن كل شىء يتغير ويمضى دون توقف » .

كيف يمكن أن تقوم للعلم قائمة فى هذه الأحوال ، ذلك العلم الذى يكفل دون سواه القانون والعدالة والخير وهى نظم المدينة المقدسة كما هى الحال بالنسبة للفرد ؟ .. ودّ أفلاطون لو يُظهر التعارض بين أستاذيه اقراطيليوس وسقراط كما كان هذا ظاهراً فى وعيه فى مؤلف أدبى . فسقراط الذى عاشر اقراطيليوس فى صباه مدة قصيرة ، حمله على الاعتراف بأنه لو لم يبق شىء على حاله لما وجد الفكر شيئاً يتناوله بالبحث .. وعلى ذلك لن توجد موضوعات للمعرفة ولا ذوات عارفة . ولكن إذا أمكن أن نؤكد أن « الجميل والخير وكل مايدخل تحت هذا الجنس من الأشياء » لها حقيقة وأن هذه الحقيقة ثابتة ، وهى على الدوام ما هى عليه ، ولا تتغير كل حين حسب وجهات النظر المختلفة ، وجب علينا حينذاك ، رغم عناد اقراطيليوس ، أن نقول وداعاً يا نظرية هرقليطس .

ومع ذلك فإن نظرية هرقليطس صحيحة ، هى صحيحة بالنسبة لكل مايسمونه بالوجود والحقيقة لأنهم لايعتقدون حقيقة إلا مايرونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم . نعم ، إن ذلك العالم الذى يعيشون فيه ، هو حقيقة « عالم يمضى ويزول » وتلك الحقيقة التى يتظاهرون بإصابتها ليست إلا مظهراً عابراً . قد أحبوا الأنغام

المتوافقة والألوان المتجانسة والأشكال المنسجمة ، تعلقوا بالبدن وبجماله الزائل ورغباته المتغيرة وإحساساته المحدودة . وهـذا جميعه ليس إلا قصور وخداع وكذب . فذلك المظهر المتحوّل يمكن أن يصير موضوعاً لعقيدة أو لفكرة هى بدورها متغيّرة على الدوام ولـكنه لايمكن أن يكون موضوعا لعلم ما .

وما دمنا نؤكد ضرورة العلم ، وما دام وجوده مقدس بالنسبة إلينا كما هى حال العدالة للخير ، وجب أن نؤكد كذلك أن له موضوعات أخرى غير الأباطيل الزائلة التى تضلل مطلبنا للمعرفة وللحب ؛ فموضوعاته روحية ومعقولة . لا تراها أعيننا ولا تلمسها أيدينا ولـكن تدركها أذهاننا وتجد فيهـا الحقيقة الراسخة والوضوح التام والجمال الثابت التى تبحث عنهـا . ذلك أن الأشياء المحسوسة ليست فى الحقيقة كائنات ، فليس لها شـكل ثابت ولا بناء مجدد ما دامت تظهر وتختفى دون أن توجد بتاتاً . أما الجواهر المعقولة فعلى العـكس من ذلك هى كائنات حقيقية ، فلـكل منها بناءه وصورته (إيدوس) الثابتـة المتميزة ، هى (إيد) أو (إيديا) هى المثل وهى ليست من تصورات النفس بل هى الحقائق الخالدة التى تضىء ومضاتها النفس كما يدعم كمالها النفس ويغذيها .

فإذا كانت الحقيقة الحقة ، موضوع العلم ، مصوغة من مثل هذه الجواهر الروحية ألا يحق للشعراء إذن أن يقولوا أنها بعيدة عن متناول الإنسان ؟ . . انها من مملـكة أخرى هى فوق مستوى البشر وهى قدسية . ولا يفتأ أفلاطون

من موضع لآخر فى مؤلفاته : من فيدون إلى الجمهورية وإلى فدرس ومن فدرس إلى تيماوس يعلن أن الحقائق الحقة جواهر غير مادية سرمدية قدسية لا يمكن أن يتأملها إلا ذهن إلهى فحسب . فماذا أفدنا إذن من وجودها ، وهل يمكن أن تقف رغبتنا عند مجرد معرفتها فحسب .

٢ — الرؤيا السعيدة والوجود السابق

أخذ السؤال صورة أشد صرامة وأقوى شكا ابتداء من محاورة مينون « كيف يمكن البحث عن المجهول ؟ » — ليس ذلك مجرد تلاعب بالألفاظ — فالبحث عن شىء ما يقتضى إلماماً بسيطاً بموضوع البحث ويقتضى إمكان افتراض غاية للبحث محددة إلى درجة ما ، وبدون ذلك لا يمكن أن نتعرف موضوع البحث حتى لو وقفنا عليه عن طريق الصدفة .

أما رد سقراط فقد أصاب الكلمة المشهورة « لن تبحث إن كنت قد عثرت على موضوع البحث » إذ قال — « هذه المعجزة لا يفسرها إلا الكهنة الروحيون والشعراء الإلهيون إن كانوا مخلصين . فهم يذكرون فى تعاليمهم أن الروح خالدة وأنها لا تخرج من الحياة إلا لتدخل فيها من جديد لأنها لا تفنى على الإطلاق . وبذلك تكون قد أبصرت كل شىء سواء فى عالم الشهادة أو فى عالم الغيب وما دامت قد وعت سالفا كل شىء فإن ذكرى أولية تكفيها اليوم لتبعث فيها من جديد جميع الذكريات الأخرى » . وتنبهنا محاورة فيدون إلى أن هذه الاستعادة وذلك التذكر إنما توقفنا على الصورة والظل فحسب —

أما الحقيقة عينها فلا نحصل عليها إلا أن عدنا روحا عارية قدسية متحللة من البدن . وعلى ذلك فالعلم الذى منهجه البحث ما هو إلا وسيط بين العلم الذى كان لدينا من قبل والعلم الذى سنحصل عليه فيما بعد . والمعرفة الإنسانية ليست إلا انتقالا بين نوعين من المعرفة إحداهما عالية على البشر والأخرى إلهية .

كيف نعبر عن هاتين الحالتين من التنوير السماوى ، حيث لا يوجد على الأرض مايمكن أن يرشدنا إليهما ؟ . . — وكيف نصور هاتين القمتين حيث تكون النفس عارية لا تجر فى أذيالها أى أثر لتلك الظلال البدنية التى نسميها صوراً ؟ . . — عن طريق الشعر وعن طريق الأسطورة . ولنذكر أن الشاعر هنا إنما فيلسوف وصاحب عقيدة . فإن جارى تأليفاته فإنما يصدر ذلك عن بحث لاعن تخبط وهوى . فهو يثبت ، اعتمادا على تجربة لايجحد أثرها واستدلال سيق فى تؤدة، الحقائق بدلا من أن يتركها دون التعبير عنها ، يخلق بخياله ماينوب عنها ويستبدلها برموز يعرفها ثم يذكر لنا قيمة الإشارات وما تحمله من افتراض إيجابى ، ويذكر فى نفس الآن عدم كفاية الصور . ونجد ذكر الرؤية السعيدة السابقة على الحياة الراهنة ، تلك الرؤية التى ترد فى صيغة التأكيد غالباً وفى صيغة الاحتمال أبداً فى محاورة فيدون بوجه خاص .

كل ماهو روح يكون سرمديا . لأن حركة العالم تتطلب منبعاً لا ينضب ، هذا إن كنا لا نسلم بأن العالم سيفنى فى لحظة معلومة . هذا المنبع لابد وأن يكون مبدءاً سرمديا على الإطلاق ، لم يبدأ ولن يفنى . ومحرك من هذا النوع

لا يمكن وأن يكون جسما — لأن كل جسم يتلقى حركته من الخارج . فيكون إذن روحاً لأن الروح تتحرك بنفسها وهى وحدها التى يمكن أن تكون منبعا تلقائيا للحركة لا ينضب .

وبذلك نثبت سرمدية الروح عن طريق استدلال قائم على ظاهرة الحركة الكونية الدائمة . أما شرح ماهية النفس وطبيعتها الدفينة فهو عمل طويل مضنى . ولعل رمز إنسانى أن يهبنا فكرة عنها فى سرعة .

لنتمثل إذن عربة يشدها جوادان ويقودها سائق وتكون الجياد والقادة بالنسبة للنفوس الإلهية كلها من جنس طيب وتظل هذه النفوس محلقة فى المناطق السماوية دون جهد بأجنحتها القوية يغذيها على الدوام جوهر غير مادى هو الحكمة والجمال والخير وتسيطر من هناك على حركة الكواكب وفى الطليعة يذهب زيوس سيد السموات المطلق فى عربته ذات الأجنحة يحكم الكون ويصرف أموره . وتتقدم من بعده مواكب الآلهة والشياطين فى أحد عشر مجموعة أما الآلهة هستيا ، الثانية عشرة ، فتبقى وحيدة فى بؤرتها. وأخيراً ، ومن خلف تلك النفوس التى لها الرغبة والسلطة ، تقوم النفوس الأخرى بهذه الجولة البديعة فى طيران يتفاوت شدة وضعفا . ترى قائدهم مشوق لأن يرقى المنحدر المنيف الذى يصعد حتى يبلغ قمة القبة السماوية ، ولكن جيادهم ليست خالصة الدم . وعندما تبلغ النفوس الذروة تستمر ما تستحق منها لقب الخالده حتى تصل إلى خارج نطاق السماء وتستريح فوق « ظهر السماء » وتظل مرفوعة أثناء الدوره اليومية تتأمل فى هدوء المنظر الآخذ بالألباب .

لم يستطع شاعر حتى الآن ولن يستطيع أحد أن يصف ذلك المكان للسماء الوصف اللائق به . هنالك تعاين الآلهة والنفوس القدسية الحقيقة الحقة التى لا تقدم للتطلع لونا ولا شكلا ولا تقدم للمس سطحا محسوسا ، تلك هى وحدها الحقيقة التى يتأملها العقل المحرك للنفس . وهى العدالة والحكمة والعلم ، ولا نعنى بالعلم ذلك الذى يتعلق بالأشياء الزائلة ولا ذلك الذى يتغير على الدوام تبعا للموضوعات المتبدّلة التى نسميها كائنات ولكنا نقصد العلم الذى يظل متعلقا بالحقيقة الثابتة .

ولكن النفوس جميعا لا تبصر مطلقا على هذا النحو من الكمال ، إذ تتعذر علينا قياده دوابنا : فقد يكون أحد الجياد طيبا أصيلا فى حين أن الآخر يكون ردىء المولد شموسا . تحوز مثل هذه الروح فى الارتفاع ما يبلغه القائد ساعية أثر الآلهة عن كثب مجاوزه القمة إلى ما يلى قبة السماء حيث تصل إلى إدراك الجواهر الفاتنات . وهنالك تكدح طويلا لتحفظ نفسها لأن الجياد تجمح وتتمرد ولكنها مع ذلك تتأمل المنظر القدسى ما بقيت دورة السماوات . وقد لا تسعد روح أخرى بذلك المنظر إلا لحظات متواترات . وتبذل غيرها مجهودات عبثاً دون أن تحظى بمجاوزة قبة السماء فهو صراع يائس فى الزحام الصاخب للمربات التى تحاول الصعود فتتزلق وترتد وتقذف نحو الداخل . فتختلط الدواب بعضهن ببعض ويطرح بعضهن بعضاً ، وتركض النفوس مدنسة الأطراف مهيضة الجناح . إنه وأيم الله ، الهبوط العميق إلى أدنى المراتب حيث تنبسط الأرض التى تحيا عليها وها هى ذى النفوس الجرداء تغوص

بأجنحتها فى اليم أرضى نسمه البدن .

وها هو ذا قانون ادراستيه : بقدر ما تكون رؤية النفوس غير تامة ومعرفتها مختلطة بالرجم والظن يكون هبوطها مسحوبة بأثقال النسيان . ثمة تسع مراتب لهبوط النفس هى : فيلسوف محب للعلم أو للجمال ، ملك عادل أو قائد جيش محنك ، سياسى أو حاكم ، رياضى من رجال الملاعب أو طبيب ، قديس أو كاهن صاحب أسرار ، شاعر أو مقلد آخر ، فنان أو عامل ، سفسطائى أو قائد شعبى ، ثم يأتى الطاغية فى المرتبة الأخيرة ؛ تلك هى المراحل التسع التى تحياها النفوس هبوطاً أو صعوداً تبعاً لاستحقاقها فى اغترابها عشرة آلاف سنة قبل أن تسترجع أجنحتها وتستأنف تحليقها نحو الرؤا السماوية . ويسترجع الفيلسوف وحدة أجنحته فى العشرة الثالثة مادام قد حيا ثلاث مرات متعاقبات حياة الحكمة هذه فى تذكر واشتياق للحقائق التى سلف أن تأملها .

خيال خصب وبناء ضخم لفق فيهما أفلاطون بين آراء متباينة : فجامع بين فلك علماء إيطاليا وجولة الأورفيين والفيثاغورين الصوفية وقولهم فى التناسخ ووصف انبادوقليس للخطيئة والخلاص فى حديثه عن التطهر وعجائب الشواهد التى يستدل منها المريدون على سبل الحق وآيات الصدق وأهل النعيم . ولكن هذه الألوان المتعددة تأخذ فى الاختفاء رويداً رويداً خلف وشاح من التصوف الأفلاطونى حيث تكون الصيغة النهائية مصوغة على الدوام فى وضوح وذكاء وترو وتوقد روحى . وهنالك حيث يعشق المريدون المآدب والتراقص المرح فى مروج برزيفون الخضراء أخذت النفوس الأفلاطونية

تتأمل فى وضح الحقيقة الماهيات اللامادية . وسينشأ عن تذكرها فيما يلى محاولة للتحليل والتركيب تخلق التعريفات العلمية كما ينشأ عنها الوجد الإلهى الذى يسمو بالقلب عن مستوى الأهواء الأرضية الخائبة .

٣ — الرؤيا السعيدة والخلود

تتعرف النفسُ الفلسفية نفسها بوجه خاص فى ذلك الوجد الإلهى . ولما كانت سجينة داخل سياج البدن وتعرف أن ليس لها أن تهشمه فى عنف محافظةً على وحدة الرغبة الإلهية ، تظل محاصرة بهذه الرقابة الأرضية حتى يلذ لأسيادها أن يخلصوها . ولكنها تستحث منذ الآن يومًا بعد يوم وساعة بعد أخرى وتتعجل ما وسمها ذلك لذة الالهة هذه ، وتعمل بقدر ما أوتيت من قوة فى إفناء هذا السور المادى والقضاء على ماديته . وما يتفلسف الفيلسوف إلا ليموت وتقبض روحه : فما حياته إلا حنين حار للموت المُنجى ، فقد علم من ولعه بالتفكير أن مملكته توجد فى مكان آخر وأن الحقائق التى تحياها لا تتعلق بعالم الشهادة هذا . تلك الحقائق التى لا يراها الآن إلا بعيدة مشوهة خلال قضبان من حديد ، والتى سيصل إلى معاينتها بمجرد تخلصه من بدنه . ذلك هو الدرس الخالد الذى علمه سقراط أصدقائه أثناء انتظاره للساعة التى تخلصه من أغلاله وذلك مارواه أفلاطون عن « سر الفيلسوف » ووسمه « فيدون » .

وُجدت على الدوام بجانب ديانة البلاط والأرستقراطيين التى تنقلها إلينا عادة أشعار هوميروس والتى لا ترى أن ثمة حياة أخرى للنفوس إلا فى هذه

الظلال الخائبة الحائرة الشاكية لدى « هادس » نقول وُجدت إلى جانب هذا في الديانة الشعبية عبادة خاصة توقف للأموات ولآلهة الأموات . كانت هـذه العبادة متأثرة بمخاوف خرافية وهي إنما تبجل الأموات أولاً وقبل كل شيء لتبعد شرها عن الأحياء . ولـكن الحياة في ديانة ديونيسوس ، التي تقرر أن الموت والبعث الإلهي ماهما إلا رمزين للمريد ، وعلى الأخص في ديانة الجميات السرية الأورفية والفيثاغورية ، أصبحت موضعاً للاهتمام وللطقوس ولتعاليم خاصة بها .

كانت هذه التعاليم في الواقع ، أشبه بالبيانات من المذاهب المحـكمة . فالمريد الذي يعرف أنه من دم ديونيسوس ومن صلب تيتانس « ابن الأرض والسماء المنتثرة فيها النجوم » كانت له بطبيعة الحال امتيازات ضخمة على البشر الآخرين كما هي الحال في كل الجميات التي لها صفة سرية إلى حد ما . ففي حين أن البشر العاديين يذهبون إلى الحياة الثانية دون إرشاد ولا شفاعة تراهم يتخبطون في طخية المستنقع العمياء ، يتعلم المريدون حينما يستوعبون الأسرار ، خفايا الطريق وكلمات السر والألقاب التي يستعينون بها أمام الملـكة برزيفون . وقد تعلق عنـد الحاجة في رقبة المتوفى صفيحة من ذهب ، ملفوفة على شكل أسطوانة تحمل في كتابة دقيقة في أسطر مقفاه إرشادات عن الطريق والدعوات الصالحات . ولما كان المريد من سلالة الآلهة وكان طاهراً ومن جنس خالص ، علم أنه سيجاور الآلهة وسيشاركهم في الجلوس على مائدتهم المتوجة بالورود . وكما يذكر أفلاطون في محاورة الجمهورية ، سيمضي وقته في مآدب صاخبة

« كما لو كان خير جزاء على الفضيلة لا يمكن إلا أن يكون سراً أبدياً » .

أما الصفاء الأخلاق فلم يُلْقَ إليه بال ، كانت المسألة تتعلق بصفاء الجنس وصفاء الطقوس . ويصر أفلاطون على القول بأن ليس ثمة مذهب واضح حتى لدى أكثر هؤلاء المبشرين تفقهاً فى الحياة المستقبلة ؛ فقابس وسيمياس اللذين أخذا عن فيلولاوس الفيثاغورى من مدينة طيبة ، يعترفان بأنهما لم يستخلصا منه أية معلومات محددة . والواقع أنهما يذكران فى وضوح أن البدن (سوما) رمس (سيما) ولكن دورة البعث تتكرر إلى الأبد ، وبذلك تقلل من شأن فكرة الجزاء إلى حد ما . كما أن الروح التى تتصور كرماد تحمله الرياح أو توافق أنعام كما يذهب أدق المفسرون لا تصلح كثيراً لأن تخلد .

ماذا عسى أفلاطون أن يفعل ؟.. سينهل من مجموعة الأسرار الايليوزينية أو الاورفية ومن الصور المختلفة للخرافات الشعبية ومن رموز الفيثاغورية ومن طقوسها فى التطهر ومن وسائلها فى التقشف . وسيأخذ كفايته من كل الاتجاهات سواء من البيانات الكاملة أو من المفاحى المشتتة ليستخلص أساطيره عن العالم العلوى ، وسيحول الرموز والطقوس والتعليمات إلى أشياء معقولة وإلى مذهب أخلاق وروحى .

٤ — أساطير الخلود

يطيب لأفلاطون ، فى الواقع أن يتخيل العالم العلوى ، وأن يصور لنا السبل المؤدية إليه أو الواردة منه ، والمحاكم المنصوبة والأحكام التى تصدر فيها ،

والأصقاع الرائعة أو المروعة التى ستصبح مآلا لمصائرنا المستقبلة .

أما أسطورة جورجياس الختامية فلا تخرج عن أن تكون أيضاً خرافة قصيرة عليها تعليق مفصّل . حدث أيام كرونوس وفى أوائل حكم زيوس أن قوضى البشر أحياء . فحضر فلوطون ومراقبو الجزائر السعيدة رافعين إلى زيوس شكواهم أن قد أُرسل إليهم أناس غير لائقين إطلاقاً لمثل هذه الإقامة . فقد كان جمال البدن وألقاب العائلة والثروات الطائلة تعمى القضاء عن وضاعة النفوس . فقضى زيوس بنظام حكيم أصبحت النفوس كلها بمقتضاه تحاكم منذ ذلك الحين وهى عارية تماماً ، فلئن كانت الجثة تحتفظ بكل ما للبدن الحى من جروح وآثار عميقة فإن النفس كذلك وقد أزيح عنها غطاؤها تكشف عما فيها من قروح واعوجاج وأورام، تلك الآثار التى سبّبها الظلم على مر الأيام. فإن كانت لازالت قابلة للشفاء كفّرت عن خطاياها فى عذاب وقتى لأن التعذيب وحده كافٍ للتطهر . وإن لم تكن ، فقد كُتب عليها العذاب الأبدى لتكون تحذرة وعبرى للآخرين .

وتصور لنا محاورة فيدون النفوس بعد مماتها مباشرة يقود كل منها شيطانها إلى مكان الحشر ثم تسعى فى جماعات يقودها مرشد فرد لا يتغيّر أبداً فى مسالك معقدة شاقة تنتهى إلى حيث هادس . وتجمح بعض النفوس إذ تجذبها إلى الوراء ذكرى الجسد الذى طالما تدلّهت فى حبه فيعانى الجنى الشىء الكثير حتى يفلح أخيراً فى إيصالها إلى حيث مصيرها النهائى : إلى جحيم أليم أو إلى نعيم مقيم . أما الجحيم فهاوية بعيدة الغور فى أسفل الأرضين تمتد فى جوف الأرض

من جانب إلى جانب . أما النعيم المقيم فسطح الأرض نفسه .

إننا نزيد فى الواقع من ابتآس أنفسنا عن طريق ضلال مزر . فنتوهم إنا نسكن سطح الأرض فى حين أننا لانقطن إلا قشرة ضعيفة انشقت عن هذا السطح . إن الأرض كرة عظيمة الكبر تسبح فى محيط أثيرى ويبدو هذا الأثير لمن يعيشون على سطح الأرض سماء فيها شمس حقة تضىء لهم . لنستعض عن ذلك بتصوير بحيرة يعيش على ساحلها نمل وضفادع ، فإن مثل هذه البحيرة أو المستنقع تبدو بالنسبة لغيرها بحراً عظيما . وما نحن إلا حشرات دنيئة تحيا على هذه الشواطىء تتخذ من الهواء سماء لها وترى فيما تتوهمه من سماء ، صورة خافتة للشمس الحقيقية . ولكن السعداء يسكنون الأرض الحقيقية حيث الألوان صافية والذهب والفضة خالصين والأحجار من زمرد وزبرجد، وحيث تكون الحيوانات والنباتات أكثر تنوعاً وأفضل نوعاً ، لا تسكن المعابد تماثيل صماء بل آلهة أحياء يحادثهم السعداء ويتأملونهم وجهاً لوجه .

ويروى لنا الكتاب العاشر من الجمهورية أن ارالفمفليانى ابن ارمنيوس الذى كان قد حسب فى عداد الموتى عشرة أيام خلت من معركة ما ، أفاق فى اليوم الثانى عشر حين وضع على المحرق ، فأخذ يذكر ما شاهده .

حينما غادرته نفسه ذهب أثر النفوس الأخرى إلى حيث توجد ثغرتان فى السماء مقابلتان لثغرتين مثلهما على الأرض . وقد أخذ القضاء مجلسهم بين هذه الثغرات . وترحل النفوس التى يقضى فى أمرها إما نحو السماء أو إلى أسفل الأرض تحمل من قُبل أو من دُبُر كتابها الذى يقضى فيها بالشقاء أوالسعادة.

وتصعد من الأرض من جهة أخرى نفوس غطاها التراب أو الوحل وتهبط من السماء نفوس أخرى تامة النقاء . ويلتئم جمعها فى المروج حيث يتساقطن الحديث فيما مر بهن من أحداث ، فتروى بعضهن ماعانت من آلام أو ما رأت من عذاب فى رحلتها خلال ألف عام تحت سطح الأرض وتقص بعضهن ما تذوقته من سعادة وما تأملته من روائع . إنهن يجازين على ما قدمت أيديهن من خير أو من شر بأن يضاعف لهن الثواب أو العقاب . وبعد انقضاء هـذا الشقاء ترغب النفوس الصاعدة من الأرض فى النفوذ إلى سطحها فلا تكاد نفوس المجرمين الخطرين ونفوس الطغاة بوجه خاص تدنو من الهواء الخالص حتى تهدر الهاوية هديراً مروعا مخيفا ـ وسرعان ما يقبل رجال من نار كانوا رابضين على مقربة من المكان فيجذبونهن إلى الوراء ويقذفون بهن فى الداخل .

وبعد أن تمضى النفوس سبعة أيام تتساقط الحديث على هذا النحو فى هذه المروج توجه نحو عمود النور الذى تشد إليه روابط السماء . حيث تتربع إلهات المصير الثلاث لأخيزيس وكلوتوس وأتروبوس ، بنات الضرورة . وعلى ركبتى لاخيزيس يجلس كاتم سرايلوزيس ممسكا بالمصائر ثم يقذف بها فى الهواء فتأخذ كل نفس ما وقع أمامها من مصير وهى على يقين من اللحظة التى سيترك لها فيها الخيار وذلك هو اختيار نوع الحياة ـ برهان قاطع لم تُعد له العدة فى الحياة الدنيا بمقارنة الأحوال الإنسانية فى دقة بالكشف عن قيمتها الحقيقية . وحين تختار النفوس مصائرها ترحل وتجتاز سهل النسيان القاحل (ليتيه) وتتوقف قريبا من نهر الغفلة (إميليس) حيث تغط فى نوم عميق. ولكنها تستيقظ

فزعة فى منتصف الليل من هزيم الرعد ، وتزلزل الأرض ، وتجرف النفوس فى الحال ، كالشهب الساقطة ، نحو الأماكن التى تتقمص فيها جسداً جديداً .

٥ — البراهين العقلية

ولكن ألا يخرج الخلود عن كونه خرافة أو على الأكثر أمنية عميقة عذبة ؟ . . — يبذل سقراط قصارى جهده فى فيدون ليقيمه على حجج مقنعة .

ألا يفترض هذا التذكر وذلك الاسترجاع للمعرفة السابقة ، التى تستطيع وحدها أن تفسر نزوعنا نحو العلم ونحو إمكانية هذا العلم فى نفس الآن ، أن روحنا قد حيت حياة قدسية نقية قبل أن تتقمص البدن والأعضاء الحاسة؟ . . — أليس وجود النفس السابق له فى هذه الحالة أيضاً من اليقين الذى لا يتطرق إليه الشك مثل ما لوجود الجميل والخير والعادل والمساوى والحقائق المعقولة كلها التى تؤيدها استدلالاتنا اليومية ؟ . . — غير أنا قد نقابل من المجادلين العنيدين أمثال قابس من يقول : « مع التسليم جدلا بأن النفس وجدت قبل مولدنا فما الذى يدلنا على أنها لا تموت معنا ؟ » وقد يتأثر الحدث الذى يوجد بيننا بتلك الأوهام التى تغذى القصص الشعبى — فيخشى أن تتشتت النفس كالدخان حين تهب الريح ، عند ما تخرج من الجسم الذى يسجنها والذى يلم شعثها . لذلك يجب أن نثبت خلود النفس ببراهين مباشرة .

وأول برهان معروف على بساطة النفس هو الذى يذهب فيه أفلاطون

إلى « مشابهته النفس للحقائق المعقولة » . وكل ما فعله فى هـذا البرهان هو أنه سبق ديكارت إلى القول ، على طريقته الخاصة ، بأن جوهر النفس هو التفكير .

وطالما كانت النفس مرتبطة بالجسم وأعضائه فإنها تظل أسيرة فى معترك الأصوات والأضواء واللذات والانفعالات الحادة السريعة التى نسميها الأشياء . ويطغى عليها اضطراب هذه الأشياء فتخبو وتتشتت ولا تهتدى أبداً . ولا تلتئم ولا تعود إلى جوهرها إلا إذا تعلقت بالحقائق المعقولة وبموضوعاتها المجردة اللامادية على الإطلاق والتى لا تخضع للصيرورة أبداً ، وذلك هو التفكير . فالنفس هى أذن تفكير بالذات ، وعاكس صاف لجواهر صافية وهى صورة للمثل ومرآة لها . فالنفس إذن شبيهة بالحقائق المعقولة على قدر الإمكان لأن الحقائق المعقولة تكون شفافة تماما أمام التفكير السليم . والتفكير السليم ، على وجه الإطلاق ، ليس إلا شفوفها عينه .

وبذلك تكون النفس ، التى تحاول الهروب من البدن بل والتى تعكف داخل الجسم على فكرها لكى تمتلك نفسها قدر المستطاع ، هى من نفس نسق الذهن الخالص وموضوعاته وإن كانت لا تطابق الحقائق المعقولة مطابقة تامة فإنها شديدة القرب منها . فمن إذن يعتقد أن هذه الماهيات القدسية اللامادية البسيطة اللامتغيرة ، قابلة لأن تنحل وتتلاشى ؟ .. ـ فى حين أن الجسم ، مع العلم بأنه قابل للانحلال إلى حد كبير يحتفظ بهيئته وشكله بعد الموت بمدة طويلة ، وأن الأجزاء الصلبة من مادته تبقى مدداً غير محدودة تقريبا ، فمن ذا

الذى يقبل التسليم بأن النفس ، ذلك الفكر البسيط اللامادى كما هو حال موضوعاتها ، يمكن أن تتشتت أو تتلاشى بمجرد الموت ؟ . . ـ

وهكذا فالنفس متميزة تماماً عن الجسم كما يمكن أن تحيا بدونه . ولكن أليست أنغام الناى كذلك متميزة عنه ؟ . . ـ لتكن غير مرئية قدسية لاجسمية ولكنها مع ذلك ليست إلا الإمْتِتار الواجب للأوتار الجسدية ، فهى تتلاشى إذن بمجرد تقطع هذه الأوتار . ويرد سقراط على هذا الاعتراض مذكراً ببراهينه السابقة فيقول ـ أن توافق الأنغام لا يوجد وجوداً سابقا على وجود الناى وقد رأينا ، عن طريق التذكر ، أن النفس تسبق الجسم فى الوجود . ولنلاحظ ، بهذه المناسبة ، أن العقلية القديمة كانت تنظر إلى هذا السبق فى الوجود باعتباره بديلا عن الخلق بل ربما اعتبرته البديل الوحيد الذى يمكن أن يقوم مقام الخلق. بيد أن هناك أسباب أخرى تعترض القول بأن النفس تقتصر على كونها مجرد انسجام .

فالانسجام والتوافق إنما هو حاصل أشياء أخرى : إذ يعتمد فى كل لحظة وبكل معانية على التوتر والارتخاء والذبذبات . فلا يمكنه إذن أن يقاوم هذه الأشياء على أى نحو من الأنحاء بل أنه ضعيف التدبير لها . ولكن النفس تدبر وتسيطر على حركات الجسم ، وتقاوم شهواتها وغضبها ومخاوفها . فهى حقيقة «فكر مدبر» . وأخيراً ، فإنها لا تحل البدن إلا وتهبه الحياة . فإذا ما غاصت فى سيال الصيرورة بدت غريبة عنه بطبيعتها . إذ لما كانت من فصيلة الماهيات اللامتغيرة كانت ماهيتها ترجع إلى ماهية الحياة نفسها وتحملها معها . ومن

الممكن أن يصل الموت إلى ما يحيط بها أعنى إلى الجسم الذى وهبته قوتها الحيوية إلى حد ما ، ولكن النفس وهى نواة ماهية الحياة لا تذوق الموت .

٦ — التّجلى الروحى

لعل تشابه النفس بالحقائق المعقولة أن يكون الدليل القوى على خلودها بل لعلنا نصيب الحقيقة إن قلنا أنه الدليل الكافى والوحيد على خلودها . وهذا التشابه أيضا هو الذى يزيل ما يعترى الادعاءات والاتجاهات الصوفية السابقة من اضطراب كبير أو قليل ويطبعها بطابع روحى .

لقد سخر هرقليطس من أتباع باخوس ومن أصحاب الطرق الآخرين الذين عاشوا فى عصره كما سخر من تطهرهم من شوائب المادة . ويشكوا أغلوقون ، فى الكتاب الثانى من الجمهورية ، مر الشكوى من الطرائق والمذاهب التى تشوه فكرة العدالة والتى تسلب الديانة كل نزعة أخلاقية وتحيلها إلى تجارة وسحر . ولم يكن أقل ازدراء لهؤلاء القسيسين الجائلين الذين يتنقلون من باب إلى آخر يبيعون صكوك الغفران أو الرقى السحرية حسب الحاجة ، والذين يدّعون تخليص الأموات والأحياء من خطاياهم بمجرد هذه الطلاسم . ولقد بذل أفلاطون جهداً محسوساً فى تجديد محتويات هذا التطهير الذى سارت وراءه الأسرار والشيع فى لهفة شديدة والذى شوهته هذه تشويها شديداً فى نفس الآن . وكان هذا التطهير لدى أفلاطون تعذيبا للتكفير عن الخطايا متقبلا فى ارتياح ، وعوداً إراديا إلى العدالة وفراراً من العالم وشوقا إلى الموت وتشبها بالآله . لقد

قيل فى كثير من الأحيان أن فلسفته تصوف فى بعض نواحيها والأجدى أن يقال ، ما أراده هو وما ذكره بنفسه أن التصوف قد صار فلسفة فى مذهبه .

ربطت فكرة العدالة هذا التصوف ربطا قويا بتجارب أفلاطون المضنية وبما كان يشغله من مسائل سياسية . فأشد المجرمين خطراً وأكثر الناس استحقاقا للتعذيب هم الحاكمون بأمرهم والطغاة كما يرد ذلك على الدوام فى جورجياس وفيدون والجمهورية وكما يرد بعد ذلك فى تيماوس . وقد كان القول بالواحد الضرورى هو النتيجة التى لم تتغير تقريبا والتى انتهت إليها كل هذه التصويرات للعالم الآخر فسقراط يحث خاليقليس على انتظار الحكم الوحيد ذى القيمة ويعلّم أغلوقون ضرورة إهمال جميع العلوم الأخرى من أجل تحصيل ذلك العلم الذى يهيئنا لأن نحسن اختيار ما ينتظرنا من مصير . وسواء قضينا الحياة فوق قمم السلطان الخطرة أو قضيناها فى الظلام فإن الحياة الأرضية ليس لها إذن من اعتبار إلا أن تنير لنا الحياة المستقبلة ـ فهى برهان وتجربة فى وقت واحد .

تجربة للموت ، ويقول سقراط « التفلسف هو التهيؤ للموت » فالجسم فى الواقع ليس إلا ظلمة كثيفة تحجب عنا الحقائق المعقولة . وثمة أساس عقلى للأقاصيص المغرقة فى الخيال التى تتناول سقوط النفوس ، وهو أننا نحن الذين نربط أنفسنا بالبدن وهذا هو التعلق الشديد برغبات البدن وملاذه والخضوع لأوامره . والواقع أن النفوس التى يتخيلها الشعبيون هائمة متوجعة حول المقابر

هى التى تعشقت البدن وظلت متعلقة به تعلقاً شديداً : وما التجسد إلا عقوبة ونتيجة طبيعية للشهوات الحسية .

إن مجاهدة الجسم والعزوف عن الدنيا ليسا قعوداً فى توان عن الجهد الأخلاقى . «فالفرار من العالم» كما يخبرنا سقراط فى صيغة ابتدائية هو «التشبه قدر المستطاع بالإله» ولكننا نجد لدى مريدى الأسرار المختلفة طرقا متعددة للتشبه بآلهتهم ـ فإن لم يصلوا فى كل الأحيان إلى حد الشذوذ الأخلاقى الذى يسمهم به آباء الكنيسة فإنهم يستمسكون عادة بأباطيل ساذجة شنيعة . «أما التشبه بالآلهة» ، كما يعرفه سقراط فيما بعد ذلك بقليل ، « فهو أن تصير عادلا تقياً أمام نفسك » وتوجد هذه التعريفات فى محاورة تيتاوس ، التى ألفت إما قبل رحلة صقلية أو بعدها بقليل. ومع ذلك فإنا نرى أن جزءاً كبيراً من محاورة فيدون وبعض صفحات الجمهورية ليست إلا شروحاً عليها . والمحاورة الأخيرة وهى محاورة القوانين تعيد ذكر هذه التعريفات فى وضوح . وتبدّل فيدون من دلالة الكلمة المشهورة « كثيرون أولئك الذين يحملون تيرس « عصابة باخوس » قليلون هم أتباع باخوس » فتذكر لنا المحاورة أن أتباع باخوس هم الفلاسفة . وهم دون غيرهم الذين يزاولون التطهر بمعناه الصحيح . أن نفسهم تدبر عن كل رغبة أو فكرة أرضية ، ولا يغذيها إلا مرعاً قدسياً هو الحقيقة المعقولة فإن حضر الموت « رحلت تواً إلى قرينها وشبيهها ، ومادامت قد تقوّمت بجوهر قدسى ، فكيف يمكن أن نخشى الانحلال والهلاك ؟ ... ـ » .

العلم الإنساني

١ — الإحساس والفكر

يقع التذكر بين الرؤيتين السعيدتين ويبعثه الإحساس والحب الذى يرق بالتدريج حتى يصل إلى أعلى درجات القداسة .

ان ثمة ميل وعجز فى آن واحد فى الموضوعات التى توقفنا عليها التجربة اليومية . فقطعتان من الخشب تبدوان متساويتان لأول وهلة . ولعلهما أن تكونا كذلك بالنسبة إلى قياس غير محكم ولكنهما ليستا كذلك على الإطلاق فى الحقيقة العلمية . ويقول أفلاطون : انهما ترغبان فى ذلك وتتوقان إليه ، ولكنهما لن تدركاه ، ففكرة المساواة الصحيحة التى يوحى بها إلينا مجهودهما تستخدم فى قياس عجزهما كذلك . ويعارض بروتاغوراس الهندسيين فى وجود مماس فى الطبيعة يماس الدائرة فى نقطة واحدة بالذات . وإنه لعلى حق ، إذ لا توجد فى الطبيعة دائرة ولا توجد كذلك زاوية قائمة تماما .

وإن أفلاطون نفسه ليسخر فى رفق من لغة الرياضيين الذين يتمسكون بها رغماً عنهم . فهم يتحدثون عن التربيع والامتداد أو عن القسمة والرفع والخفض ، كما لو كان استدلالهم يعتمد حقيقة على الشكل الذى يرسمونه تأييداً لهذا الاستدلال . ومع ذلك فهم يعلمون علم اليقين أن هذا الشكل يكون ناقصاً

وباطلاً على الدوام . وقد أوقفتهم التجربة على شيء هو « محاولة » لأن يكون دائرة . فهم يرسمون بدورهم أو بالأحرى يؤلفون ، باستخدام كل دقة فى الميكانيكا العلمية ، شيئاً يصحح ويقضى فى حدود المستطاع على ذلك التقريب الذى يوجد فى الطبيعة . ولكنهم لايقولون ولا يعتقدون مطلقاً أن هذا الشيء اللاحظ ، أو المرسوم ، أو المؤلف هو دائرة كاملة من جميع الوجوه وأن له كل خصائص الدائرة . فليس للدائرة وجود إلا فى تفكيرهم باعتبارها شيئاً متطلّباً . ويقول أفلاطون انها وجدت فى تفكيرهم على الدوام ولكن على هيئة فكرة كامنة . فالإحساس الذى يوحى بفكرة ما لا يخلقها إنما يوقظها فى النفس فقط . وهذا الإيقاظ هو التذكر .

حِفظ هذا الإيحاء ، والشعور بما يتضمنه من نداء ، والإذعان له بالتدرج من المعنى الموحى إلى الماهية السرمدية الكاملة الذى هو نسخة منها ، ذلك ما يفعله « الجدل » . ويصور الكتاب السابع من الجمهورية هذا التصاعد المنهجى من المحسوس إلى المعقول أعنى إلى الفكرة أو المثال .

٢ — الكهف

أخذ أفلاطون يستعيد ذكريات الصبى . فكان مسرح الصور المتحركة من أكثر المناظر فتنة له فى هذا العهد ، حيث تضطرب وتثرثر لعب لطيفة على حاجز يخفى وراءه من يمارس تحريكها ؛ فيأخذ الطفل الذى لا يرى العامل أو الخيوط ، فى متابعة هذا الخداع فى شوق زائد . كانت هذه اللعب ورغائها

وتشاحنها وانفعالها فى شدة أو لين والحوادث الغريبة التى تتخلل حياتها القصيرة بالنسبة إلى أفلاطون خلال ساعة أو ساعتين هى العالم الواقعى . لتخيّل أن ناراً أوقدت خلف العامل وخلف اللعب وطُلب من النظارة أن يجعلوا ظهورهم إلى الحاجز ثم أسدل ستار يشخصون إليه . بذلك نحصل على صور متحركة فى شكل ظلال تسقط على الستار . هذا ، وقد استخرج أفلاطون من هـذه المناظر المتواضعة رمزاً له دلالة عظيمة .

لنتمثّل أناسًا مسجونين فى كهف لا يسعهم إلا النظر إلى داخل هـذا السجن لأن رقابهم وسوقهم قد كبّلت بسلاسل ثقيلة ، وقد أداروا ظهورهم للضوء الذى ينسل خالصا إلى الداخل عن طريق الجزء الأعلى من فتحة متسعة يقوم من خلفها جدار يرتفع حتى يحجب منتصف الفتحة « ويشبه هذا الجدار الحواجز التى يضعها عمال الصور المتحركة بينهم وبين النظارة » ويوجد طريق من خلف هـذا الجدار يصعد إلى أعلى حيث يذهب أناس ويجيئون يتحادثون فيما بينهم أغلب الأحيان ويحملون على أكتافهم تماثيل صغيرة بحيث تبرز التماثيل وحدها من فوق الجدار . وهناك وعلى بُعد قليـل خلف الطريق أوقدت نار أضاءت التماثيل وألقت بظلالها إلى قاع الكهف . فلن يبصر المساجين بطبيعة الحال إلا هذه الأشباح ولن يترامى إلى أسماعهم إلا أصداء هـذه الأصوات . ولما كانوا قد أوثقوا بالسلاسل منذ طفولتهم ولم يروا قط غير هذا المنظر فإنهم يعتقدون أن هذه الأشباح هى التى تتحدث وهى التى تحيا ، هى بالنسبة إليهم العالم وحقائقه ووعوده وملاذه ومتاعبه .

فإذا أطلقنا أحد هؤلاء المساجين وأرغمناه على الوقوف وعلى أن يدير رأسه وأن يتطلع إلى الضوء المنبعث من النار أو أن يشاهد التماثيل التى تمر أعلى الجدار . حينئذ وقد انبهرت عيناه فسوف يعتقد أنه لا يرى إلا أشباحاً تتراقص ويود لو عاد إلى رؤاه داخل الكهف ليحصل على الحقائق من جديد . لننتزعه من الكهف الذى يعيش فيه ، ولنجذبه على الصراط حتى يصل إلى ضوء النهار التام ، ولندفعه إلى أن يشخص بعينيه نحو الشمس . سيتحسر ويتأر من الغيظ ، لقد آذته الصدمة إيذاءاً عميقاً ، فلم يتمكن من أن يميز شيئا على الإطلاق مما نسميه موجودات وكائنات .

إنه فى حاجة إلى تعلم تدريجى لكى يستعيد النظر إلى الحقيقة والإحساس بها . فنبدأ بمواجهته بأشباح الأناس وأشباح الأشياء الأخرى ثم نواجهه بصورها منعكسة على سطح الماء أو على مرايا ثم نواجهه أخيراً بالكائنات أنفسها . ثم نجعله يألف فى رفق ضوء القمر ولألاء النجوم ، ولن نجعله يشخص إلى الشمس عينها ، هنالك حيث توجد وبالكيف الذى عليه توجد . سيدرك آنئذ أن الشمس تحدث الفصول والأعوام وأنها تهيمن على كل شىء فى عالم الشهادة بل وأنها العلة الأخيرة لتلك المناظر التى كانت تتزاحم بداخل الكهف .

اعجب بحكمة الآن على قيمة هذه الأشباح التى تسكن باطن الأرض ـ كانت فيما مضى حقائق لها قيمتها . كان اقتناصها فى سرعة أثناء عبورها وتذكر زمانها ومكانها والنظام الذى اعتادت أن تظهر عليه ومن ثم القدرة على التنبؤ بالوقت

الذى ستظهر فيه من جديد ـ كان هذا هو العلم . فما أكثر بطلان هذا العلم وبطلان كل مفخرة تصدر عنه ! ليترل مرة أخرى إلى الكهف وليعد إلى مقامه من الأصفاد ثم ليتطلع . سوف يعجز أول الأمر عن تميز شيء ما فى هذه الظلمات . ولكنه سيتعرف عليها ثانيا بمرور الزمن ، وسيعرف هذه المرة أنها أشباح . أى سخرية وأى ضحكات عالية تلك التى يستقبله بها العبيد من رفاقه إن حاول أن يشرح لهم حالهم ! ألم يفقد بصره فى الخارج ؟ .. ليبتعد عن كل محاولة من شأنها أن ترجعهم إلى الصواب أو تخلصهم من الذل أو تعيدهم إلى النور وإلى الحقيقة ، فقد يمسكوا به إن تمكنوا ويزهقوا روحه .

لنبتعد من التصوير إلى الواقع . فالكهف الذى فى باطن الأرض هو عالمنا المحسوس ، والنار التى تلقى بالأشباح هى الشمس التى تضيء لنا . والصعود إلى الخارج هو ترقى النفس نحو العالم المعقول حيث تضيء الشمس الحقيقية ، مثال الخير . ولن يمكننا تحمل لمعانها قبل أن ندعم النظر العقلى بدراسة منهجية فإن وصلت أخيراً إلى تأملها وإلى تحديد صفحتها المتوهجة بعد لأى حينئذ نقدّر أنها علة كل خير وكل جمال . لا ينبعث الضوء وأشعته القوية فى عالم الشهادة هذا إلا عنها . وانها لتخلق الحقيقة والعقل الذى يتأملها معا فى العالم المعقول . ولن يُرْجَ نفعٌ من شيء فى الحياة العامة أو الخاصة ، ولن يكون أمر ما سديداً إذا لم يحصل تحت ضوئها .

فليس ثمة من داع إذن للدهشة بعد أن نرى هؤلاء الذين تأملوها مرة قد تملكتهم الحيرة والذهول . فهم يتوقون إليها وإن تكاثرت عليهم المشاغل

فلا يشاركون فى هـذا العالم إلا كرهاً وازورارا . أرأيت إليهم كيف يثيرون الهزو والشفقة فى نفس الآن حينما يضطرون أمام المحكمة إلى مهاجمة تلك الأشباح التى يسميها الناس أشياء ووقائع ! ولكن لنذكر على الدوام أن ثمة صنفين من العميان : أولئك الذين عاشوا فى الظلام وفى الليل فيعشو الضوء أبصارهم ، وأولئك الذين ألفوا نور الحقيقة فيتحسسون طريقهم فى الظلام .

٣ — مهمة العلوم الرياضية

يحتفظ الناس عادة بفكرة خاطئة تماماً عن التعليم . فيتوهمون أنه عبارة عن إدراج علم تام التجهز فى النفس الجاهلة كما لو أمكن أن توهب الأعين الكليلة الإبصار . ولكن التعليم لا يخلق آلة التعلم وكل ما يفعله هو تخليصها من الشوائب وتوجيهها . على أن النظر الروحى لا يمكن أن يوجه دون توجيه كل قوى النفس ، إذ لا بد وأن تتجه النفس بكليتها نحو الحقيقة .

ولكن النفس تدرك فى الأشياء تجانساً مضطرباً متقطعاً وتوافقاً جزئياً يفزعها ما فيه من شذوذ . ولعل الاستجابة لتلك الدعوات القدسية وانتظام عقدها فى أنشودة تأخذ أبياتها فى الاتساع رويداً رويداً حتى تبلغ بنا أقصى حد من التوافق السرمدى ، ان يكون فى العلوم الرياضية . والواقع أن أفلاطون يعتبرها التمهيد الذى لا محيص عنه فى دراسة الحقائق المعقولة .

ليس ثمة من شىء لا تدلنا الحواس على أنه كبير وصغير ، واحد ومتعدد ، بسيط ومنقسم إلى مالا نهاية ، تبعاً للأحوال والمناسبات . ولكن مثل هذه

التناقضات تنبه الذهن ، فيرتفع حينئذ إلى تعريف يتجاوزها ويسمو عليها فيتصور الوحدة المجردة وسلسلة الأعداد ، وهكذا تتفتح أمامه المشاكل الحسابية التى لاتنتهى . ويتصور العظم المجرد فضلا عن الخطوط والسطوح المنظورة ويتخيل التأليفات الهندسية المثالية . كانت هذه العلوم قد تقدمت هناك تقدماً كبيراً فى اللحظة التى أسس فيها أفلاطون الأكاديمية ، ولا يمكن أن نشك فى أنه حينما عاد من زيارة اورخيتاس لم يكن قد مال بعد إلى أن يجعل للعلوم الرياضية جزءاً مهماً من منهج الدراسة . هذا ، إلى أن « مدرسته » كانت تحدوها روح حرية الفكر . وكل ما كان يدرسه أفلاطون هو إرشاد وتوجيه عام . ويذكر لنا بنفسه إنه لكى نعمل على تقدم أعمال المتخصصين وعلى التوفيق بينها لابد من وجود ملاحظة شاملة غير متحاملة ونظرة تعرف إدراك الأجزاء فى مجموعها ، أى عين إجمالية .

كان لأفلاطون هذه العين الإجمالية وذلك الحب الجامع . فشكى مر الشكوى من قصور الدول عن تشجيع أبحاث العلماء وتوجيهها . فما أكبر التقدم الذى يستطيع الإنسان الظفر به بوساطة تلك المجهودات المنسقة على هذا النحو لأن هذه الدراسات مهما يكن من أمر احتقارها وعرقلتها فإنها مع ذلك تأسر أصحاب القلوب ، ولطالما تقدم بها هؤلاء ! ألم يكن يوجد علم دقيق حتى بات سقراط المحاورات يشكو من عدم تأليفه بعد ، وماذا يكون هذا العلم على وجه الدقة ، فى اللحظة التى حرر فيها أفلاطون الكتاب السابع من الجمهورية ؟ .. كان قد فرغ فى تلك اللحظة من اكتشاف هذا العلم « أستاذ »

شاب من أساتذة الأكاديمية هو تيتاوس ، أفضل تلاميذ تيودوروس من سرينيا. سار تيتاوس باكتشافات أستاذه القديم فيما يختص بالكميات اللامتوالية شوطا بعيداً فى سبيل التقدم ، وتمكن من إعادة الحلقة المفقودة بين الهندسة أو علم السطوح وبين الفلك أو علم الأجرام المتحركة وهذه الرابطة هى الاستريومترى أو علم الحجوم .

فإذا أضفنا إلى هذه العلوم الأربعة ، الحساب والهندسة وعلم الحجوم والفلك والموسيقى المنتظمة أو علم التوافق حصلنا على سلسلة من التعاليم العلمية كما كانت تدرس فى الأكاديمية . وقد رغب أفلاطون فى شوق فى أن ينهض بالعلوم الرياضية . ونعلم علم اليقين أنه ساعد بوجه أخص فى وضع المشاكل وفى اكتشاف المناهج العلمية . وقد تخرج فى هذه الجامعة الأولى بعد تيتاوس المخترعون أو أصحاب العلوم الدارجة أمثال : ليون وإيدوكس ومنيخم وغيرهم كثيرون ، وسبق ليون ، اقليدس الشهير ، فى تحرير رسالة « العناصر » بل ونجد فى رسائل اقليدس نفسها أن الكتاب الخامس من تأليف إيدوكس والعاشر من تأليف تيتاوس . وظل أثر أفلاطون ملموساً حتى عهد ازدهار الرياضيين الاسكندريين فى القرن الثالث للميلاد .

أما الرياضيات فلا تؤدى بنا رغم هذا إلا إلى عتبة المعقول . وإن كان موضوعها هو الماهيات اللامادية إلا أنها مضطرة على الدوام إلى تأييد موضوعها بأشكال محسوسة . وهى تبدأ من مبادئ تسميها تعاريف أو بديهيات أو مسلمات ولكنها فى حكم أفلاطون تسلّم فى الواقع بكل شىء لأنها لا تتمهل

حتى تستخرجها من مبادئ أشمل وأعم . وتتدرج « العلوم الرياضية » عن طريق هذه الفروض الابتدائية من مقدمة إلى مايلزم عنها حتى تنتهى إلى نتائج تتزايد فى التعقيد .

وبدلاً من أن يتوقف الفيلسوف عند هذه الدرجة الوسطى يتخذ منها معيناً يتأدى به إلى مراحل أخرى ، فيرقى من هذه المبادئ التى تسلم بها الرياضة فى يسر ، إلى الماهيات العقلية الخالصة عن طريق الفكر المحض ودون استخدام أى شكل من الأشكال . وأخيراً يتأدى درجة درجة إلى المبدأ الذى صدرت عنه والذى هو مصدر لنفسه : أعنى مثال الخير . وهكذا ، يتأمل شمس كون المعقولات كما تأمل السجين المتخلص من الكهف شمس الكون . فيدرك أن مثال الخير هو مصدر النور والوجود معاً لكل الحقائق فى هذا العالم . ولا تصدر عن هذه النار السامية العلوم بأجمعها فحسب بل تصدر عنها كذلك كل الماهيات الروحية ولما كانت هذه النار هى الحاصل الضوئى لكل حقيقة فهى إذن « تفوق كل حقيقة أخرى وكل نور آخر قدرة وفضلا » .

٤ — الحب الفلسفى

إن الذى يعين النفس على هذا التصاعد الطويل هو ما يطلق عليه المحدثون اسم الروح العلمية أحياناً واسم الروح الصوفية فى أحيان أخرى : شيئان بذلوا قصارى جهدهم فى التميز بينهما وفى مقابلة الواحد منهما بالآخر ووحّد بينهما أفلاطون تحت اسم جذاب هو « الحب » .

قدم الحب الأفلاطونى مبحثاً سهلاً غير أنه كان متنوعاً أيضاً ، للقصاصين الذين يستغلون مافى باطن التاريخ العام من إبهام. ومما يؤاخذ عليه النقد الدقيق فى أيامنا هذى « ذلك العشق الحوشى الأحمق ، الذى لا يزال البعض راغبين فى نسبته إلى نابغة الشعر فى الحب الفلسفى » . على أن تصريحات أفلاطون السديدة قد قضت سلفاً على هـذه الادعاءات فى مواطن متعددة من محاوراته . فشخصية سقراط فى هذه المحاورات تظهر أمام الشباب بمظهر من يجدّ فى طلب الحب ولـكن الجمال الذى يريد أن يعرفه وأن يعرّفه للآخرين هو جمال النفوس. وليبرهن أفلاطون على ذلك أمام عالم منحل ؛ وصل إلى حد أن اتخذ من القيبيادس وهو أعظم مثل للانحلال دليلاً قاطعاً على صدق قوله . كان القيبيادس ثملا إلى الحد الذى سمح له بأن ينتكث كل عهد وكان بارعا فى غبائه إلى الحد الذى سمح له أن يصور لنا وراء مظهر سيلين قلب سقراط الحار الصريح ، قلب سقراط الحقيق . وتستنكر محاورة الجمهورية بنفس الصراحة التى تستنكر بها محاورة القوانين ذلك الحب الشاذ فضلاً عن أن أكثر صفحات فدرس حماساً لاتفتأ تذكر الصداقة القلبية والصداقة الروحية. فلئن كان الجانب الفلسفى لم يطغ على الجانب التشريعى فى أفلاطون فإن الجانب الشعرى لم يطغ على الجانب الفلسفى فيه ، نعم ان أجنحة ملـكة شعرة قد مست قذارة العصر مسًّا رفيقاً غير أنها لم تتلوث بها .

ثمة جدل للجمال كذلك الذى يخص الخير . دعى سقراط وارستوفان وبوزانياس وسراميس وفدرس ومرهينوس واريكسيماكس الطبيب فى ليلة

من ليالى عام ٤١٦ لتناول العشاء لدى الشاعر اغاتون احتفالا بفوزه فى مسابقة التراجيدى . وقد تأخر سقراط ، الذى كان قد توقف فى الطريق غارقا فى أفكاره وكانت المأدبة قد بدأت منذ وقت طويل حينما حضر سقراط . ثم انتهى العشاء ورتلت الأناشيد فى تمجيد الآلهة وبدأت المأدبة بمعناها الصحيح . ولم يكن لهؤلاء المفكرين شأن بلاعبات الناى . فطردن ثم طلب إلى كل مدعو أن يؤدى جزيته إشادة بالحب . فكان هذا بالنسبة إلى أفلاطون ، وهو سيد المقلدين ، ظرفاً مناسبًا لأن يكتب قطعة رائعة «على طريقة كل مؤلف» فكل مقال كان تقليداً لأظهر مميزاتهم . أما تقليد ارستوفان الذى حرّف الكوميات القديمة فى قصصه عن نشأة الأجناس ، فكان بوجه خاص قطعة بلغت أعلى درجات السخرية صيغت فى نثر اتيكى بسيط عذب . ثم يأتى دور سقراط ، فى محاورة قصيرة مع اغاتون ، حيث يبدأ بتصحيح المديح المفرط الذى كاله الخطباء الأولون للحب .

لن يكون الحب شيئاً جميلاً ولن يكون شيئا مثريا مادام جوهره هو النزوع . وهذا النزوع الصرف ليُشْعر بالعوز كما يشعر بالجلو . ويختلف الحب عن أن يكون إلهاً عظيما بل لا يصل إلى حد أن يكون مجرد إله . فماذا عسى أن يكون إذن ؟ .. إن فى مقدور سقراط أن يجيب على هذا السؤال لأنه تتلمذ أخيراً على إحدى كهنة مانتينيه هى الحكيمة ديوتمى . ليس الحب شيئًا خالداً أو شيئًا فانيًا إنما هو جنى متوسط المكانة بين الآلهة والإنسان . هو ابن ليوروس ملك الثراء وبينيا ملكة العوز . ورث مظهر المبتئس وحياة البائس عن أمه وأخذ

عن أبيه الجرأة المتسلطة . ليس الحب عالماً ولا جاهلاً بل هو مجرد باحث عن العلم : هو فيلسوف . هو القلق التام والرغبة من كل قلب إنسانى نحو الخير الأسمى . فالكائن الفانى الذى فينا يريد أن يحصل على الخير أبد الآبدين . فهو يحلم بالخلود ، ولكنه لن يتمكن من أن يصل إليه فى هذا العالم الدنىء اللهم إلا أن يستعيض عنه بشىء آخر ذلك بأن ينسل ذرية من لحمه أو من روحه مستعينًا بالحب والجمال .

أعجب سقراط فى شدة بأحاديث ديوتمى هذه ، ولكنها قالت : « ليست هذه ، أى سقراط ، إلا أسرار الحب الأولى وستجد فيها ، إن شاء الله ، المدخل فى يسر . إذ لا تزيد عن أن تكون دهليزاً ، أما عن محراب المريدين فلست موقنة بعد إن كان فى مقدورك أن تنفذ إليه ، وإنى محاولة على هذا أن ألج معك ذلك الباب » .

ثم أخذت ديوتمى تلقن سقراط المراتب المختلفة لهذا الطلب السامى . فأول رتبة من مراتبه هى حب جسم جميل ، وهو حب ذهب صرف هنا كما هى الحال فى الجمهورية ، لأنه « يولد أفكاراً جميلة » من الكائن الذى اختاره . إلا أن الحب لا يزال فى هـــذه المرتبة مكبوتاً محدوداً . فيدرك حينما يعظم أن جمال الأجسام المتنوع ليس إلا صورة لجمال واحد بالذات . فيحب كل شىء ويتخلص من عبودية الواحد الفرد الذى يعوق نهوضه . ولكن شتان بين هذا الجمال الجسمى وبين جمال الروح ! سيصل العاشق الحقيق خلال مقامات بدائية إلى

تأمل روح جميلة والفناء فيها ونثر الكلم الطيب تمجيداً لها ثم يرتقى من حب النفوس إلى حب الأعمال وحب القوانين . ثم يقابل ما هو أعلى من الحياة العملية نفسها ألا وهو العلوم . وبارتقائه من واحدة إلى أخرى ينس الاسترقاق الذى قصره على جسم واحد أو نفس واحدة أو عمل واحد . ومن تلك القمة التى وصل إليها عن طريق هذا التصاعد يرسل ببصره إلى محيط الجمال بأجمعه . ويبقى فى هـذا التأمل مدة طويلة ، يتغذى منه « لينشىء فلسفة متسعة الأفق فى أفكارها وكلماتها » وهكذا تقوى نظرته ، بعد أن دُعّمت على هذا النحو ، على تحمل ومضة الكشف الأخير .

أما مايدركه فى هـذا التنوير الفجائى فهو الجمال الواحد الأسمى . سرمدى لم يحدث ولن يفنى لايقبل التحبُّر ولا الذبول . لا تغير الهيئة التى يبدو عليهـا ولا اللحظة التى يظهر فيها من جماله ولا يتشكل تبعاً لعمر أو لمزاج الذات التى تتأمله . ليس وجهًا صبوحًا ولا أياد رخصة وليس كلاً ولا علماً . ليس جمال شىء ما أو جمال كائن حى وليس جمال الأرض أو جمال السماء . ليس إلا جمال نفسه ، هو جمال فى ذاته موجود على الدوام متشابه أبداً . ليست أنواع الجمال الأخرى بالنظر إليـه إلا ومضات عابرة لا يضيف ظهورها أو خبوها شيئًا إلى بهائه السرمدى ولا ينتقص منه شيئًا ولا يُغير فيه شيئًا . جمال بسيط صاف خال من الشوائب ليس فيه شىء جسدى أو إنسانى أو شىء يغرى عينى الجسم أو يُرغّب فى لغو تلك الشهوات الفانية ، جمال إلهى يرتشف من يتأمله من الفضيلة الحقة لا من شبح الفضيله . فيصبح خليلاً للإله وينفذ إلى الخلود رغم كونه فانٍ .

٥ — تعقب الحقيقة

ليس الجمال والخير سوى مظهران من مظاهر الوجود كالحق والعدل وكالواحد والمتغير ، رغم المكانة العالية التى تضعهما فيها محاورة الجمهورية ومحاورة المأدبة ومحاورة فدرس . ولا يتوانى أفلاطون فى أن يذكر لنا أن موضوعات الرغبة الإنسانية الأبدية هذه ليست هى الكيفيات العابرة للأشياء التى تحدث وتزول ، كما أنها ليست التجريدات التى تقوم بها نفوسنا أو التأليفات التى تكوّنها ولكنها حقيقة عميقة ، واحدة بالذات ، باقية على الدوام ، هى كمال تام متحقق . أما الحد الأقصى للتصاعد الأفلاطونى فهو الوجود أو الإله. ولم يكن تفكير أفلاطون فى وقت ما اجتماعياً خالصاً أو علميًا بحتًا أو دينيًا صرفا . فنفس المثال ، الواقعى والعالى فى وقت واحد ، يتخذ معياراً للحياة الفردية ونموذجًا للمدينة المثلى وموضوعًا للمعرفة وللحب . والأفلاطونية فى جميع مناحيها وإن بدت منطقية تمامًا ، ليست سوى حب ورغبة وشوق متصل نحو الحقيقة الكلية .

تلك الحقيقة الكلية ، إلهية قصية البعد ولكنها مبتغاة إلى غير نهاية ولا يألو المرء جهداً فى الاقتراب منها . وكذلك كان تفكير أفلاطون ملتهبًا منهجيًا فى آن واحد .

لم يكتف هذا التفكير باستعارة المشاهدات والوقائع من الأطباء بل أخذ عنهم بوجه خاص روح الإحاطة والتأنى . وقلد طرائقهم وتستر خلف اسمهم

وأمثلهم لتأييد مناهجه النقدية الخاصة . ويستعين سقراط فى محاورة فدرس بهيبوقراط ، أستاذ مدرسة كوس من أجل تبيان أهمية التحليل والتركيب . إنه يتعشق هذه المناهج . فهو يشير قبل ديكارت إلى أن السر الأعظم لكل بحث هو تقسيم الموضوع المركب إلى عناصره البسيطة وأن نتأدى بالتدريج من أبسط المسائل إلى أكثرها تعقداً . ولم يكن أقل تعشقاً للتصنيفات على النحو الذى اتبعته علوم الطبيعة . وثمة محاورتان من محاورات المجموعة المتأخرة هما السوفسطائى والسياسى مملوءتان بهذه التصنيفات . كان الزوار يترددون من حين إلى آخر على الأكاديمية . والممثلون الهزليون يعرضون لنا فى أحد أيام عيد الباناتينية التلاميذ وهم منهمكون فى مناقشة خطيرة كان موضوعها تحديد وتصنيف شىء كان يتأمله الكل بشغف : وهذا الشىء هو ليمونة ! وإلى جوار أفلاطون كان طبيب من صقلية يستمع وينقد .

لا يقنع هذا التفكير المدقق بأن يرجع على نفسه فى كل لحظة ليراقب نفسه وليحقق منهجه وليصحح من خطأه . فعلى الرغم من وثوقه من مواقفه أو بالأحرى من مطالبه الأساسية ، كان يتقبل الاعتراضات أيًّا كان مصدرها بل كان يتخيلها بنفسه حين تدعو الحاجة . ويعرض أفلاطون فى محاورته بارمنيدس الصعوبات التى تثيرها نظريته فى الحقائق المعقولة أعنى الصور الخالصة أو المثل . ويذكر ذلك فى صورة من عدم التحيز وبدرجة من الوضوح يبدو معها أن نقد أرسطو لم يأت بجديد فى هذا الباب .

العلم الإجمالى لدى أفلاطون مثل أعلى . والبحث العلمى فى رأيه هو عمل لا نهائى فكل اكتشاف يضع إشكالاً جديداً . وكان إيمانه بإمكانية العلم إيماناً مطلقاً . إذ يصرّح فى محاورة مينون بأن الشك من عمل النفوس الكسولة فضلاً عن أن إحدى الميزات العظيمة لنظريته فى التذكر هى أنها تخلق الباحثين. ولما كان هو سيد الباحثين ، فهو أستاذهم إذن فى الميادين التى لم يهيؤها لهم ، بفضل روح منهجه وحب استطلاعه الحر على الدوام . وهو أستاذهم فى ميدانه الخاص بفضل إيمانه بالرؤيا النهائية وبفضل حرارة شوقه وبفضل اجتهاده فى المحافظة على توجيه كل قوى نفسه نحو الحق على الدوام .

المدينة الفاضلة

١ — فى الاعتزال وفى العمل

تجرى حوالى عشرون سنة بين موت سقراط ورحلة أفلاطون الثانية إلى صقلية . شاهد أفلاطون خلال تلك الحقبة استمرار المعارك الفظيعة بين الإخوة اليونانيين حين حاولت أثينا وحليفاتها أن تحافظ على سقوط اسبرطة ، ولكن اسبرطة استعادت السيطرة من جديد ، فتآمرت أثينا وطيبة ضد صولتها العنيفة ، ثم ابتعدت أثينا عن طيبة التى اشتد ساعدها ، وتحالفت أثينا واسبرطة ضد سطوة طيبة . وغذت بلاد الفرس هذه النار وحاولت التحرر شيئاً فشيئاً .

فساعدت اسبرطة على سحق أثينا . ولما كسر جناح أثينا حاولت اسبرطة استعادة ما تخلت عنه فى آسيا من قبل . وأخذت منذ عام ٤٠١ فى مساعدة فيروس الأصغر ضد أخيه أرتاكسيركس ، وأيدت فى السنين التالية يونانيي آسيا الصغرى ضد واليهم الفارسى تزافرن . ولكن أسطولها ضرب فى عام ٣٩٤ ضربة قاضية تلقاها من الأسطول الفارسى عند كنيدا ، وكان يتولى قيادته أمير البحر الأثينى كونون الذى أخذ أخيراً بثأر النكبة التى أزيلت فى إيجوسبوتاموا . ثم تحالفت أثينا مع طيبة وكورنثوس وأرجوس لتتمكن من

زعزعة سلطة اسبرطة الصلبة . وأفادت من مساعدة الفرس فى إقامة جدرها الضخمة ، وجدر كونون أسطولها البحرى وأعاد إليها ترازيبولوس السيطرة على البوسفور . ولم تتوقف اسبرطة فى هزيمتها عن حيك الدسائس من حول أرتا كسيركس وعن التوعد بإقامة امبراطورية أثينية جديدة . ونجح أخيراً أنتالكيداس ملكها عام ٣٨٦ فى الحصول على معاهدة تعيد إلى الفرس سيطرتهم على يونانيي آسيا وتعيد « الاستقلال الذاتى » لكل المدن اليونانية . وكان فى هذا ، القضاء المبرم على كل محالة للتحالف . وهكذا ظلت اسبرطة سيدة كما كانت .

أدرك ذلك حلفاؤها غير المتحمسين لها كما أدركه أعداؤها . فقد حطمت أسوار مدينة مانتينه وانتشر سكانها فى خمسة قرى كبيرة . واحتلت قلعة طيبة غدراً وخيانة دون قتال فاضطرت طيبة إلى أن تنحاز إلى الحلف الاسبرطى . أما أولنثوس التى ارتبطت بمعاهدة حاسمة جداً فى خلقدونيا فقد استولى عليها عام ٣٦٩ بعد قتال ثلاث سنوات ومن ثم تلاشت المعاهدة . ولما خلصت طيبة بفضل تحزب مواطنيها ، انحازت أثينا التى كانت قد نجت من ضربة اسبرطية إلى جانب الطيبيين وعملت على إعادة عقد اتفاق بحرى لصالحها الخاص. ولكنها رأت أن طيبة تنال السبق فى سرعة فعقدت الصلح مع اسبرطة خوفا من تلك القوة المتزايدة . وفى اللحظة التى كادت تنهار فيها قوة اسبرطة ، حين هزمها أباميننداس عند لوقترس عام ٣٧١ وحين غُزيت فى عقر دارها ، صممت أثينا على شد أزرها فأرسلت جيشاً بقيادة أيفقراط إلى برزخ كورنثوس وتحالفت

معها تحالفاً عملياً ضد طيبة فى ربيع عام ٣٦٩ . ثم غزا أباميننداس البليبونيز مرة أخرى . ورغب حاكم بلدة بريجة الفارسى وديئس حاكم سيراقوزا فى إنقاذ اسبرطة ، فعقدا مؤتمر سلام فى دلف ولكن جهودهما ذهبت أدراج الرياح. فلم تتخل طيبة عن شىء . بل لقد نجحت فى اكتساب أرتاكسيركس نفسه إلى جانبها ولكن هذا لم يكن أحسن حظا فى توطيد السلام واستمرت الحرب حتى أرهقت أمهات المدن المتعادية . وعلى هذا النحو كان استغلال اليونان لقوتها ! وفى سنة ٣٦٨ ، عقب تدخل الطيبيين الظافر فى مقدونيا ، أرسل البلاط المقدونى أميراً شاباً ليتلقى العلم فى مدرسة طيبة العسكرية . وكان هذا الرهين يدعى فيليب .

وقد يطيب لنا أن نعرف تأثير هذه الأحداث الضخمة فى نفس أفلاطون. ولكن كل ما نملكه ويا للأسف وهو الوثيقة الوحيدة المقتضبة التى أرخ أفلاطون فيها لنفسه ، أعنى الرسالة السابعة ، لا تحدثنا مطلقاً عن الفترة بين عام ٣٨٨ وعام ٣٦٧ ولا تذكر من أحداث السنين السابقة على هذا التاريخ إلا حديثاً موجزاً جداً فضلا عن أن ما ذكرته لا يتناول إلا سياسة أثينا الداخلية فحسب . ولما كان شبح سقراط يطغى على المحاورات فإنها لا تظهرنا بشكل مباشر إلا على رجال العهد السابق على سنة ٣٩٩ وعلى إحداث هذا العهد . والمحاورات مع هذا كله روايات بالمعنى الصحيح: فمن الطبيعى إذن أن تسعى، كما تفعل الكوميديا ، إلى جذب انتباه الجمهور الذى تخاطبه بتلميحات تنم عن حوادث لا تزال حاضرة فى الشعور أو لا تزال ذكراها حية فى النفوس .

واستدعاء تلك الحوادث اللاحقة على موت سقراط تتضمن أخطاء تاريخية تسمح لنا بأن نحدد تاريخ بعض المحاورات على نحو تقريبي ولكنها سريعة من غير شك بحيث لا تطلعنا على آراء أفلاطون الشخصية . فالمأدبة التي يبدو أن أرستوفان يشير فيها إلى تشتت مدينة مانتينه ، يجب أن يرجع تاريخها إلى ما بعد عام ٣٨٥ بسنوات قليلة . ومحاورة تيتاوس مصدرة بمقدمة ذكر فيها أن تيتاوس أصيب بجرح مميت في معركة بالقرب من كورنثوس : فهي ترجع إذن ، على وجه التقريب ، إلى ما بعد عام ٣٦٩ . ويؤبن سقراط في منكسين « موتى الحرب » . ويرد هذا التأبين على لسان إسپازيا زوجة پركليس ، ولكي يحول بيننا وبين أن ننظر إلى هذا التصوير نظرة جدية أخذ يلخص في خطوط متباعدة تاريخ أثينا حتى سلام انتالسيداس في عام ١٣٨٦ ! . فمن العسير حقاً أن نبحث هنالك عن صدى صادق لحكم أفلاطون على سياسة هذا الزمان .

والواقع أننا نعلم سياسة واحدة لها قيمة الآن بالنسبة إلى أفلاطون : تلك هي السياسة التي كان يعدها في عزلته الشاقة . كان لحياة الدرس هذه سحر في نفسه عميق ، فأي مأوى هيأته هذه الحياة ليتعزى فيه الفيلسوف الفار من عدوى العلم الدنس « وإذ يلتجئ الإنسان خلف حائط حالما تباغته عاصفة شديدة من الأتربة والأمطار كذلك ينأى الحكيم بنفسه عن عواصف الظلم حيث يرى الناس يضطربون ، فهو سعيد حقاً إن أقام في هذا العالم الدنئ دون أن يتلوث بالبغي والعدوان وهو سعيد أيضاً إن فصل عنه ملئ النفس بأمل جميل مطمئن القلب قرير العين » . ولكن أيرضى بمثل هذا المصير ؟ كلا ، لأنه

سيذهب فى المدينة التى أقيمت له « إلى أن يرتفع بكمالها إلى أقصى حد بل إلى أن ينقذ شعبها كذلك » . وترسم لنا الجمهورية صورة تلك المدينة التى سيحقق فيها الفيلسوف حلمه بأن يحقق ذاته .

٢ — خيال وتطرّف

أصبحنا بعد شيشرون نعتبر كلمة « الجمهورية » ترجمة لكلمة تقرب فى معناها من كلمة « دستور » . وهذه الكلمة وحدها هى أفضل ما يعيننا على أن نفهم أن مشروع أفلاطون لم يكن حدثاً جديداً كل الجدة فى ذلك العصر . أسس اليونانيون مستعمرات متعددة اعتادوا أن يقيموا فيها نظماً مأخوذة من مدن متباينة ودساتير متزايلة . ودفعوا بمستكشفيهم إلى أقطار مختلفة أشد الاختلاف وعرفوا شتى أنواع النظم الاجتماعية . وولعوا بالجمع والمقارنة والابتكار . وكتب أرسطو مائة وخمسين وثمانية بحثاً فى الدساتير ورأينا أفريتياس يقوم بعمل محدود من هذا القبيل . ولكن هذه المادة السياسية كانت لم تزل فى عصر أفريتياس فى دور التكوين بصورة أوضح مما كانت عليه فى عصر أرسطو . وفى أثناء الثورات التى حدثت فى عام ٤١١ ، وفى عام ٤٠٣ هيأت الحرب الأهلية وغذتها حرب مساجلات سياسية . وكانت الأفكار على على حال أشبهت التباغض فى تباعدها . وكانت مسألة الدساتير النافذة أو المقترحة أو المفترضة على درجة من التعقيد سمحت لمؤرخ كأرسطو نفسه أن يخطئ فيها .

أما فى فترة الهدوء التى أعقبت هذه الثورات فإن أشد انقلابات المشرعين تطرفا لم تكن لتزعج بعض القراء الذين شهدوا كثيراً من التقلبات، بل وجد فيها أصحاب الكوميديات على العكس من ذلك مورداً ميسوراً . فعرض أرستوفان حوالى عام ٣٩٢ روايته « مجلس النساء » وتبعاً للخطة التى يفصلها زعيم برلمان النساء هذا ، يصبح كل شىء حقاً مشاعا للجميع « من خبز وكعك وملابس وخمر وأكاليل وبقول » بل ومن نساء كذلك . وسينادى الأطفال أن « يا أبت » لكل رجل متقدم فى السن . ويعمل العبيد فى الأرض . أما المواطنون والمواطنات فليس من عمل لهم إلا أن يحيوا فى دعة وأن يتسامروا ما طاب لهم السمر . وكان هذا الذى عبر عنه أرستوفان فى سخرية ماجنة هو الهدف الخطر الذى رمى إليه بعض الخياليين . ألم تكن النزوة السائدة فى ذلك الحين هى المقابلة بين الطبيعة والقانون واعتبار كل ما هو جمعى صادر عن تواضع الإنسان وهواه ؟ .. ـ فليس من عجب أن تتباعد حدود الإمكان إلى ما لا نهاية وأن يأمل الكثيرون وهم غارقين فى أحلامهم فى أن يعودوا إلى الحقيقة البدائية .

اعتبر أفلاطون الدولة ضرورة من ضرورات الطبيعة . ومع هذا فلم تكن النزعة الفنية لديه هى التى جمعت وحدها بين الخيال والحب . إذ أن رجل العمل يعاوده القلق ، فى العزلة التى فرضها على نفسه ، من أجل إعداد العدة لمستقبل بعيد جداً . فكان فى حاجة إذن إلى تحقيق هذا المستقبل وإلى أن يراه حاضراً لساعته أمام عينيه لا أن يبقى حلماً مطويا . وقد انضاف العنف الذى ثار فى نفسه

نتيجة لتدبره لوطنه ونتيجة لحبه لوطنه كذلك ، إلى دافع الاستنتاج المنطقى فتمخضا عن جرأة فى التفكير لاتعرف حداً . ولكن الخبرة والسنون ستطامن من غلوائه الذهنى وستعيده إلى الائتلاف مع الواقع من جديد . رغم تنازله على هذا النحو عن « الفروض » وتكيفه بالظروف الواقعية فإنه سيحتفظ على الدوام بذكرى « نظريته » وأسفه عليها وسيحتفظ بما يحتفظ به مفكر البرج العاجى من تفضيل للأفكار التى يعلم أنها أشد ما تكون بعداً عن التحقيق .

ما هو فى نظره أعظم شر للمجتمعات الموجودة ؟ .. ـ هو الربط بين « القوة » و «الاستمتاع» ذلك الربط الذى يعتبره الجميع طبيعى وضرورى. ولقد سمعنا بولص وخاليقليس ينادى ، كلّ منهما بأسلوبه الخاص بحق القوة وبعدالة الفعل الذى لا وازع له . ويفصّل ترازيماخوس نفس النظرية فى حماس شديد فى الكتاب الأول من الجمهورية . ليست العدالة إذن إلا مصلحة الأقوى : فى كل دولة سواء أسارت على الطغيان أم كانت ديمقراطية أو أرستقراطية ، ليس للقوانين من غاية غير منفعة الحاكمين . أما الصور المثالية للملك راع فأبعد ما تكون عن الفطنة بل الأحرى أن نقول أنها لغو فى الحديث: ألا نرى إلى رعاة الأغنام ورعاة الأبقار كيف يسمنون الأغنام والأبقار فى غير مانظر إلا إلى منفعتهم ومنفعة أسيادهم ؟ .. ـ إن شهوة الحكم لأعظم الشهوات جلباً للنشوة ـ إذ كل الشهوات متضمن فيها .

أى دواء عسى أن يصلح لهذا الداء الذى أفسد كل فكرة عن الحكومة

أو يصلح على الأقل لأن يفصل فصلا تاماً بين معنى السلطة والمنفعة الشخصية؟... أنا نجد فى هـذا الدواء وسيلة لرفع الداء الآخر فى نفس الوقت ، أعنى الجور المفسد الذى يسود المجتمعات الشعبية والبلاد الديمقراطية . لنخلى بين الشعب وبين الحرية الكاملة المطلقة فى الشئون الاقتصادية ، ولننتزع منه السلطة ومشاغل الحكم ، وعلى العكس من ذلك نتحى بين الحاكمين وجميع المشاغل المادية حتى أبسط ميول التملك والمنفعة فلا ندع لهم إلا وظيفة واحدة ، ومهمة واحدة ، هى حكم الدولة . أما المؤونة فسيكفلها جمهور الصناع والعمال لرؤسائهم كما يكفل الغذاء لكلاب الحراسة . فإذا ما أحسنت تغذية تلك الكلاب وكانت كلاب قنوعة متيقظة ستحسن بدورها قيادة القطيع ورعايته. ويصدر عن هـذا المبدأ ما نسميه عادة بشيوعية أفلاطون . وهى شيوعية إن شئنا من أشد أنواع الشيوعية تطرفا ما فى ذلك شك ولكنها قاصرة على طبقة حراس الدولة ورؤسائها .

ولما لم يكن لهؤلاء الحراس من شاغل آخر سوى حماية المدينة وإدارتها فسننشؤهم كما ينشئ حماة القلعة أو كما ينشئ جيش احتلال فى أحد المعسكرات. وكانت اسبرطة قد بثت أمثال هؤلاء الحرسة فى اليونان بأسرها على وجه التقريب فى الحقبة التى ألف فيها أفلاطون محاورة الجمهورية ويحتمل أن يكون ذلك خلال الفترة التى بين عام ٣٨٤ وعام ٣٧٤ ، وكان يتولى الحكم فى كل مدينة جماعة من الأرستقراط المنتخبين تحت إشراف ورعاية هؤلاء الحَرَسة . ولكن أفلاطون تابع ما يتضمنه مبدأه من منطق، فشأن هؤلاء الحراس شأن

المتحاربين فى المعسكر . لن يكون لهم منزل أو حانوت لا يطرقه الجميع . ولن تكون لهم ملكيات خاصة البتة . وسيتناولون طعامهم على موائد مشتركة بينهم ولن يتقبلوا من المواطنين إلا ما يلزمهم من مؤن لسد حاجتهم السنوية وسوف لا يتقاضون أى أجر على عملهم : وحظر عليهم وحدهم امتلاك ذهب أو فضة فضلا عن مسهما أو لمسهما . وسيكونون إذن فئة من الموظفين غير مأجورة. ولنذهب إلى أبعد من ذلك بأن نذكر المبدأ الذى صاغه أفلاطون خاصاً بذلك : « لن يملك أحد منهم شيئا سوى بدنه أما كل ما عدا ذلك فهو شائع بينهم » .

يعنى بكل ما عدا ذلك النساء والأطفال أنفسهم . أما إلى أى حد تجاهل أفلاطون المرأة فهذا مايظهر من تلك العبارة الوحشية الساذجة « كل ما هنالك من فارق بين الجنسين هو أن الذكر ينسل والأنثى تلد » . وثمة قول آخر أقل عنفاً من سابقة وهو : « فى مقدور المرأة أن تقوم بكل ما يؤديه الرجل ولكنها أقل منه قدرة وارداً منه إنتاجا » . وكذلك كان أفلاطون عصريا كاسبرطة التى اتخذها نموذجا له ، غير أن هؤلاء العصريين كانوا من الأقدمين . فأراد أن يلقن الفتيات نفس التعاليم التى يتلقاها الفتيان وأن يكلفهن نفس الواجبات، هذا مع مراعاة ضعف جنسهن .

لكنه ويا للأسف يذهب إلى أبعد من هذا ويسبق التجارب الخطيرة التى تحاول بعض المذاهب السياسية وإن كانت من نوع آخر أن تحققها بعد أن كانت من قبل أحلاما . «وستكون النساء حقا مشاعا بين الحراس فلا تسكن

إحداهن على الدوام إلى فرد بالذات . وسيكون الأطفال كذلك أبناء للجميع فلن يعرف ولد أباه ولا أب ابنه . ولنطوى كشحا عن التنسيقات التى تخيلها من أجل المحافظة على سلامة النوع . ولنشر فقط إلى ذلك المعهد الغريب الذى يجمع فيه الأطفال أو « روضة » الأطفال الأهلية إلى حيث تذهب الأمهات لإرضاع الأطفال ويعهدن بكل شىء آخر إلى عناية المربيات . الام تصل القسوة بمنطق ذلك الخيال ! ـ «علينا أن نتخذ جميع الاحتياطات الممكنة حتى لا تعرف أى أم على ولدها » . وأن مثل هـذه الخيالات لتذكرنا بكلمة بسكال ـ أراد أفلاطون أن يعلو على الطبيعة فسقط إلى الحضيض .

٣ ـــ نحو أحلام أنسب للانسان

وددت لو أفصل فى سرعة عن هـذه الأضغاث : وأحمد الله إذ أجد فى محاورة الجمهورية أشياء أخرى . وإنا لنشعر بارتياح حين نسمع سقراط يعترف فى موضـع آخر بأن خطته عسيرة التحقيق فى مجموعها فعلينا أن نحاول الاقتراب منها قدر المستطاع فقط . وليس فى وسع المرأ ألا يفكر فى أن أفلاطون لو كان مسيحيا لاستطاع أن يحقق مثله الأعلى مع بقائه إنسانيا مع ذلك . ماذا يريد على وجه التحقيق ؟ .. ـ أراد ألا يفرق « ما هو لى وما هو لك » بين حرّاسه وألا تشغل قلوبهم عواطف أخرى عن أن يتفرغوا تفرغا تاما للعمل المطلوب منهم حتى ولو كانت هـذه أقدس العواطف حرمة . ولما عجز عن الكشف عن وسائل أخرى للزهد فقد لجأ إلى الزيغ ، والتخبط فزاد الطبيعة

قسوة على قسوتها . هذا وقد لجأت عصورنا الوسطى إلى إيجاد النظم الدينية العسكرية فى سبيل حل مشكلة كتلك .

وإنا لسعداء إذ نجد فيه إلى جانب المنطق الفظ مدافعاً إنسانياً إلى أقصى حد عن « حقوق بنى الإنسان » ولعل من الواجب أن نقول « عن حقوق اليونانيين » فحسب . ولكن ألا يكفى فى سبيل تحقيق حلم السلام الشامل أن نبدأ أولا بتلطيف النزاع بين الأخوة والجيرة ؟ ... — أليس فى السلام الأوروبى مقدمة جميلة لسلام عالمى ؟ ... — أدرك أفلاطون إذن كما أدرك بعض ذوى النفوس النبيلة فى ذلك الحين أمثال جورجياس عينه وليزياس وايزوقراط أن الحرب الداخلية بين اليونان هى السبب الوحيد فى غلبة البرابرة . وهو يقر بذلك ولكنه لما لم يكن يأمل فى أن تضع الحرب أوزارها فى الحال أراد أن يوقف الجميع على حقيقتها على الأقل ويبين لهم أنها حرب أهلية ومرض عضال وآفة يجب أن نضع لخطرها حداً . فيجب إذن ألا تُستعبد أى مدينة يونانية أو أى نفس يونانيـــة . وألا تسلب أمتعة الموتى ولا تخرب أرض الوطن ولا تحرق المنازل . وأن نقنع بمحصول العام . وألا يعامل مواطنو الدولة معاملة الأعداء سواء أكانوا رجالا أم نساء أم أطفالا . وألا نمد من أجل الحرب إلى ما بعد اليوم الذى يتقدم فيه بالاعتذار المذنبون الحقيقيون ومن كانوا سبب الخصومة . وفى اختصار ألا نقوم بأى حركة من شأنها أن تشعل الحرب دون أن نذكر وجوب نشر السلام فى صبيحة اليوم التالى . أفكار جميلة ، كانت لها قيمتها وسط فظائع كتلك التى لمحناها من قبل . فهل كانت هذه الأفكار

أقل أثراً فى نضالنا « العلمى » فيما بعد ؟

لم يكن أفلاطون يقيناً ليبشر بسياسة خداع . ولم يكن ليؤمن بأن ثمة معجزة ستلخص الإنسانية أو لينصح لشعب ما أن يهب نفسه لقمة سائغة لاطماع الآخرين . وبقدر ما يعرّض من يطنطنون بذكر الحرب أوطانهم لاضرار لا تغتفر أخذ أفلاطون يعيب ، فى محاورة السياسى ، أخلاق التخاذل « التى تحولت من حب فاضح للسلام إلى فقدان كل قدرة على الحرب وأصبح الناس وهم تحت رحمة أول مهاجم » ، ولم يعتبر الحرب أقل خطراً من هذا . فأخذ فى محاورة الجمهورية نفسها وكذلك فى محاورة القوانين منذ بدايتها وهى جميعاً تعتبر دستور هذا المفكر ، يثور فى حدة ضد المثل الأعلى للمحارب الذى قدسته كل من كريت ولا قيد ومونيا . وكانت الحرب قد أصبحت المصدر الوحيد لعصابات المرتزقة الذين أخذوا يعرضون خدماتهم منذ أمد بعيد على طيبة حيناً وعلى أثينا أو على اسبرطة حيناً آخر وعلى مصر أو فارس حيناً ثالثاً ، ثم اكترتهم مقدونيا لغزو العالم . ويحقر أفلاطون من شأن هؤلاء القتلة الأُجراء ولكنه يدعو فى نفس الوقت إلى إجلال أصحاب الضمائر أولئك الذين يجد فيهم الوطن أمنه وطمأنينته وهو يضع هؤلاء فى مرتبه تتلو مرتبة المشرعين مباشرة . وهذا لا يمنعه من أن يصرح بأن الحرب ليست غاية للدول ولكن السلام هو الغاية أوأن الغاية هى شىء يفضل كل شىء آخر بل ويفضل فضيلة السلام الإنسانى نفسها أعنى الإنصاف التام.

٤ — مملكة الانصاف

لئن كان القدر العاثر قد شاء أن يحرمنا من كل محاورات أفلاطون فيما عدا الجمهورية فإننا سنجد أيضاً فيما يكشف عنه هـذا الأثر الرائع من ثروة فى الفكر وفى النغمات والأسلوب دواعى كافية لتبرير إعجاب القرون المتتالية « بأفلاطون الإله » . وتبلغ هذه المحاورة وحدها من الاتساع ما لا تكاد تبلغه محاورات جورجياس ومينون وفيدون والمأدبة سويا ، بل وكل ما عالجته هذه المحاورات من نظريات تلتقى جميعاً فى تلك المحاورة . وهى من جهة أخرى مملوءة بأفكار تزيدها المحاورات اللاحقة تفصيلا. وكان أفلاطون قد فصل عن هذه المحاورة من حين إلى آخر خلال السنوات التى أوقفها على تأليفها لينشئ محاورات أخرى أقصر منها . ومهما يكن من أمر تعقيدها فإنها بديعة البنيان لا تكتسب وحدتها من ذلك الفن الدقيق الذى يجانس بين أجزائها فحسب بل إن ثمة فكرة تسودها وتكسبها الحركة والحياة — تلك هى فكرة الإنصاف.

ارتطم العالم من وقت لآخر بنظريات تقر القسوة والظلم . ولكن الواقع أن العالم يزدرى القوم العادلين ويحتقرهم إن كانوا ضعفاء بائسين ولا يحب إلا الفوز والانتصار . ولكن الفوز يؤت الظالم الذى يحيط نفسه بمظهر الخير ويجنى الشر فى غير ما حرج ولا تردد . وقد يهتدى العادل فى سيره بضوء ضميره ولكن هذا الضوء لا ينير العالم . فإن لم يبغ عن العدالة حولا يُنكر فضله ويُزدرى شأنه « فيضرب بالسياط ويعذب ويكبل بالأصفاد ويقضى على

نور عينيه . ثم يصلب بعد أن يذوق هذا العذاب الشديد . ألا ير حينئذ أن المسألة لا تنحصر فى أن يكون منصفاً بل تنحصر فى أن يبدو كذلك ؟ ... — »

ماذا يذكر الشعراء الآن وهم أضواء العالم ؟ ... — لئن تمدحوا بالمنصف فإنما يفعلون ذلك ليذكروا لنا أن الآلهة إنما تطفف له النعيم وتفيض عليه بالخيرات وأنها ستجزيه حتى بعد موته جزاء ماديا . ولكن كم يجعلون من سبيل العدالة طريقا وعثة شاقة ! أما طريق البغى فهى على النقيض لينه منثوره بالرياحين . ألم نر إلى آلهة هؤلاء الشعراء كيف وهنت عزيمتهم فى توعد الظالم بعذاب الجحيم؟ لئن أرادوا منا تقدير العدالة حق قدرها لامتنعوا عن تصويرها فى صورة سبيل غير مأمون الجانب إلى حد ما ولقالوا لنا أن العدالة هى ذاتها أفضل فضائل النفس وأن الظلم أردأ سيئاتها .

ولكى نعرف طبيعة العدالة فى حقيقتها لن نتريث حتى نكشف عنها فى حياة الإنسان الخاصة . فنفس الإنسان ميدان شديد الضيق ، خطت عليه الحقيقة بحروف دقيقة يعز على بصرنا القاصر إدراكها — فالأجدى أن ننظر فى حياة المدينة وأن نسع إلى قراءة الحقيقة فى صفحة هذه النفس الكلية ، التى تكشف لنا فى صيغة مكبرة ميسورة القراءة عن سطور النفس الفردية . تتكون المدينة من ثلاث طبقات من بنى الإنسان ، الطبقة الحاكمة وطبقة الجند وطبقة الصناع والعمال . فإن تحقق هؤلاء بالصفات المفروضة فيهم مثلت طبقة الحكام الحكمة فى النفس الكلية وتجسد الجند الشجاعة . أما الاعتدال أو ضبط النفس ، فيسود المدينة إن احتفظت بتدرج متناسب بين أفرادها .

فأين موضع العدالة ؟ . . — توجد فى النظام الذى يضع كل كائن فى موضعه والذى يحد نشاط الكائن ورغباته بحدود وظيفته الخاصة . فلكل عمله . وما ينبغى للنجار أن يستحوذ على آلات الحذّاء ولا أن يتدخل فى صنع الأحذية فإن هذا عين الفوضى وكم تكون الفوضى أوخم عاقبة لو أن النجار أو الحذّاء أرادا من غير تدرب أو كفاية أن يقوما بعمل الجند أو أن الجندى أراد أن يحل محل الحاكم . فإذا ظل كل عنصر من عناصر المدينة وظلت كل قوة من قوى النفس فى موضعها وقامت بوظيفتها على خير وجه، استتب النظام وسادت العدالة . أما النظام فهو الصحة بالنسبة للنفس وللجسم على السواء وهو خير النفس الطبيعى وشرط حياتها السليمة . أفى حاجة نحن الآن إلى أن نتساءل ما إذا كانت العدالة خير من الظلم أو كانت مفيدة للفرد أو للمدينة ؟

إن واجب التهذيب هو بث الأفكار والعادات التى تكفل هذا النظام الطبيعى بل هذا النظام الغريزى إن صح هذا التعبير . يجب أن يبدأ التهذيب منذ الحداثة وأن يستعين حينئذ بالقصص وهنا نرى أفلاطون ، ذلك النظرى الذى نادى بالعلم المطلق ، لا ينكر أن العلم لا ينفذ إلى الحياة إلا على هيئة قطرات . فإنا نظل أطفالا لمدة طويلة وما أسهل ما نعود إلى ذلك الطور ! إن الغريزة هى التى تقودنا فى أغلب الأحيان وكذلك فى الأحيان التى نتساق فيها لفكرة ما ، نرى أنها تنبثق فينا من أعماق ذكريات معتمة . وأفعالنا إنما تصدر عن جبر وعن تأثيرات لا ينالها الشك وإذا صدر تصرفنا عن مؤثرات واضحة

فإن هذه الأخيرة أقرب ماتكون فى أغلب الأحيان إلى الوجدانات أوالحدوس أو الاستدلالات المحتملة منها إلى الاستنتاجات اليقينية. فالتقاليد والاعتقادات والخرافات والظنون قوى تفوق العلم فى التأثير . علم أفلاطون هـذه الحقيقة وأخذ يستعين بها ماوسعه ذلك ليهيىء على الأقل الطريق المؤدية إلى الاستدلال واستمان بها كذلك ليحل الاستدلال محله من النفوس التى لم تكن تستسيغه من قبل . ولئن كان أفلاطون قد قبل الخرافة فإنه قد اشترط على الأقل أن تكون جدية حاثة على الخير ، وإن كان ظاهر الخرافة لا أساس له من الصحة فقد أراد أفلاطون أن تكون صحيحة فى دلالتها .

وسيختلق مشرعوه أنفسهم قصة خرافية ، إذ يذكرون للحراس والجند والصناع والعمال أنهم جميعاً إنما نشأوا وخلقوا من طينة واحدة كانت تختلط بالذهب والفضة والحديد . يولد الأطفال عادة من نفس معدن آبائهم ، ولكن قد يمتشج ابن الحارس يوماً ما بالحديد بدلا من الذهب ، وقد يولد ابن الحاطب ونفسه من ذهب . وحينئذ يُرفعوا أو يُخفضوا من غير ما تأخير إلى درجات استئهالهم ، لأن المدينة ، هكذا يقول المشرعون ، تهلك لامحالة إن تولى عنصر الحديد السلطة فيها . فالطوائف عند أفلاطون إذن مباحة للجميع إلى حد ما .

ثمة قوم يحترفون صناعة القصص ، ومن هؤلاء يتلقى الشعب أكبر قسط من ثقافته . ويحدثنا أفلاطون بدوره بعد هرقليطس واكسينوفان عن قيمة هؤلاء المثقفين ؛ فيسخر هو الآخر فى عنف من أسياد الخيال أولئك الذين أصبحوا أسياداً للحياة ، لذلك لن يخلّى بين خيالهم الخصب وبين سلطة غير

مأمونة الجانب فى مدينته التى يشيدها . نعم ، أتى هوميروس وهزيود بدين اليونان . ولكن الفكرة التى يقدمانها عن الآلهة متضاربة بعيدة عن كريم الخلق مملوءة بالنفاق. فلن نسمح إذن لأكاذيبهم بأن تستمر فى تسميم النفوس. كفتنا تلك الآلهة التى تتطاحن وتصطرع وتأتى الفحش والنكر ، والتى تغار من بنى الإنسان وتنتقم من سعادتهم ! ليس شأننا أن نؤلف قصصاً ، ولكنا نطلب ممن يتحدثون عن الآلهة أن يراعوا هذه القاعدة العامة وهى : أن تظهر الملاحم والأناشيد والتراجيديا ، الله على حقيقته . فالله ليس علة للشر ما دامت ماهيته الخير ، والله لا يفعل إلا العدل : فإن عاقب المجرمين فإنما يبغى هدايتهم وصالحهم . والله بسيط فى غير تعدد أو كذب : لا يُغيِّر من صورته ولا يبدّل من كيانه أو من الحقيقة التى هى ذاته . فلن نتغاضى إذن عن القول بأن الآلهة سحرة وينبغى أن نخلّص أعمال هؤلاء الشعراء تخليصاً تاماً من عناصر الفساد « إن شئنا أن يكون حماتنا صالحين تشملهم القداسة إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان » .

سنبعد كذلك كل الفقرات التى تصوّر الأبطال يبكون أو يتألمون ، يكذبون أو يتنازعون ، يتشاتمون أو كانوا فى أفعالهم يفرطون . إن الشعر تقليد فى أساسه ولكنه مولّد للتقليد كذلك : فهو يبعث فى نفوسنا ويثير فينا المشاعر والأفعال التى يتناولها بالوصف . لذلك لا يقبل أفلاطون منه إلا ما كان موضوعه الفضائل وكانت وسيلته البحور والأوزان الهادئة البسيطة . وأخذ أفلاطون بنفس القاعدة فى اختيار الأغانى والإنشاء والتصوير والنحت والتدريبات

الرياضية ، وأخذ بها كذلك فى العلم الذى ليس إلا امتداداً لها ، أعنى الطب . فهذا العلم الأخير يجب ألا يكون من أغراضه المحافظة على حياة من لا نفع فيهم. لذلك أراد أفلاطون لهروديكوس التمس ـ صاحب الملعب الذى أقعده المرض فصرف جهوده إلى المزاوجة بين التدريبات الرياضية والطب ـ « أن يمضى مابقى له من عمر فى ركود وعزلة » . ويحدثنا أفلاطون عن نجار سقط مريضاً فقبل أن يطهّر جسمه وأن تبتر الأعضاء المعتلة منه وأن يحرق ، وقد حدث ذلك فى غير توان . أما لو أتاه حديث علاج دقيق طويل لعاد إلى منشاره ومعوله ، فإما أن يشفيه العمل أو يخلصه الموت .

آداب وموسيقى وألعاب رياضية ، ذلك هو المنهج العام الذى يكفى جماعة الحراس . ولكن يوجد من بينهم ممتازين نادرين أعدتهم الطبيعة لأسمى الأعمال فهم يتحرقون شوقاً إلى العلم وإلى العلم بكل فروعه ، ويبغون تأمل الحقيقة الخالصة فيلتمسونها فى الحقيقة اللامتغيرة فى الأشياء العابرة . أولئك فلاسفة بالفطرة : وسيحصلون عن طريق التدريب والتعليم على درجة من الكمال تمكننا من أن نعهد إليهم بإدارة المدينة فى غير ما وجل . ذلك أن أفلاطون يعلن بأعلى صوته أن : « لن يسود البشر سلام ما برح الفلاسفة بعيدين عن عرش المدن أو لم يتحول الملوك وأصحاب السلطان إلى فلاسفة بمعنى الكلمة ». وسواء وهب الفكرة القوة أو أعاد القوة إلى الفكرة ، ألم يكن هذا حلماً نبيلاً فى عصر أكد ومارس حق القوة وحده ؟ ..

إن الطريق المؤدى إلى علم السيادة الحق هذا ، طريق شاق بعيد ، وإن

كانت الفلسفة قد نُبذت إلى هذا الحد فلعل السبب فى ذلك أن يرجع إلى سوء معاشرتها فى أغلب الأحيان ويرجع السبب فى ذلك أيضاً إلى الاقتراب منها والابتعاد عنها فى سرعة شديدة باعتبارها مرحلة بين عهد المدرسة وعهد الحياة العملية . فقد أُعتبرت فضلاً من ثقافة يُفتخر بالحصول عليها ولكن ذلك يكون فى عجلة ورفق . ولما كانت الفلسفة كمال فسوف لا نسمح لأفضل حراسنا ببلوغ هذا الكمال إلا بعد تدرج منهجى وسلسلة اختبارات عسيرة .

سوف نعلمهم منذ الحداثة الحساب والهندسة وغيرهما من العلوم التى توقظ الروح الفلسفية . وسوف نخلص هذا الضرب من التعليم من كل إرغام . فيلقن الأطفال العلم كما لو كانوا يلعبون ويمرحون . وفى سن العشرين بعد أن يمضوا عامين أو ثلاثة أعوام فى التدريبات الرياضية ، يعود أزكاهم روحًا إلى ممارسة العلوم من جديد ، ولكنهم يتعمقونها فى هذه المرة ويملكون أعنتها بوجه خاص بأن يتمكنوا من نظمها وتسلسلها ، ثم يساقون من علم لآخر درجة درجة حتى يبلغوا علم الحقائق المعقولة أو الجدل . فيقتربون من هذا العلم فى سن الثلاثين ويلينون عرائكهم بممارسة مختلف مناهج الاستدلال الفلسفى . وليست الغاية من ذلك مجرد الزهو الذى لا طائل وراءه أو المجادلة اللفظية التى لا نفع فيها ، ولكن الغاية هى التعوُّد على إدراك الحقيقة على خير وجه وعلى الدفاع عنها بأفضل الطرق .

وفى سن الخامسة والثلاثين يهبطون من قمم الأفكار المجردة لكى يقوموا خلال خمسة عشر عاما بكل الواجبات العسكرية والمدنية المفروضة على كل

رجل فتى . وفى سن الخمسين فقط يسمح لأولئك الذين يجوزون كل هـذه الاختبارات بنجاح أن يتأملوا بصفة دائمة ماهيـة الخير أى الشمس المعقولة منبع كل وجود وكل نشاط ومسبار كل وجود وكل نشاط . ولن يكون هذا ضرباً من التأمل الـكسول . ولنصل الحديث بتلك الصورة التى أحبها أفلاطون، مثلهم مثل البحارة على المركب سيدع كل منهم دراساته المنهكة لـكى يحظى « بقسطه من الحراسة » وسيكون هذا واجباً لا محيص عنه أكثر من كونه شرفاً يتقلدونه : فيتواترون على حكم المدينـة وينشئون رجالاً أكفاء لأن يحلوا محلهم . وحينما يفرغون من تأدية عملهم على خير وجه يرحلون إلى الجزر السعيدة حيث يلقون خير جزاء . وستمجدهم الدولة كما لو كانوا كائنات إلهية.

٥ — انحراف وتقهقر

إن تولى الحـكم فرد من بين هؤلاء الحراس الفلاسفة قلنا عن الدولة أنها ملـكية ، وإن تقاسم السلطة كثيرون سميناها ارستقراطية . وليس ثمة من اختلاف إلا فى التسمية : فجوهر المسألة هو أن يستمد الحاكم أو من بيدهم الحـكم قوتهم من المبادىء التى قررناها وأن يداوموا على تنفيذها .

ويبدو من العسير أن يتغير دستور بلغ من الـكمال هذه الدرجة . بيد أن الأجيال الإنسانية خاضعة لقوانين غريبة فى تقدمها وتدهورها فقد يقوم الزواج على غير أساس من الوفاق وقد تسوء رقابة المواليد فيختلط الحديد بالفضة بغير حق ويمتزج البرنز بالذهب . تلك هى بذور القلاقل والفتن . أما الحاكمون

والجند وقد انتصروا فى نهاية الأمر سوف يفيدون من هذه الحال فى الاستحواذ على الأراضى والمنازل وفى استرقاق العمال والصناع الذين عاملوهم من قبل معاملة الأحرار . ويستبقون إلى جانب ذلك من النظام الارستقراطى احتقارهم للأعمال التى تدر الربح وتناولهم الطعام على موائد مشتركة وكلفهم بالتدريبات الحربية والرياضية . ولكنهم سوف ينحرفون عن الفلسفة ويكلفون بالقتال والسلطة والمال . تلك هى التيموقراطية ، حكومة أساسها الطمع ، تراها متحققة فى نظم كريت ولاقيدومونيا .

تبعث الملكية الفردية حب المال فى النفوس وخاصة حينما يجد المالك نفسه مدفوعاً إلى أن يحافظ عليها وإلى أن ينميها دون أن يقوم بأى عمل من جانبه . وسرعان ما يصبح الفرد ولا مطمع له إلا أن يغدو مثرياً وأن يبدو كذلك . ثم تصل الحال عاجلاً أو آجلاً إلى عدم السماح لأى فرد بالوصول إلى الوظائف العامة دون أن يكون ذا نصاب مالى معين . وهكذا تنشأ الأوليغاركية حكومة الأقلية الرأسمالية .

وسرعان ماتنقسم الدولة على نفسها : فلا تعود مدينة واحدة بل مدينتين ، إحداهما للأغنياء والثانية للفقراء تحيا الواحدة منهما فى الخزى وتنهش كل منهما الأخرى . وإذ كان لكل فرد حق البيع والشراء فإن البخلاء سوف يغنمون من انهيار المسرفين . ويصبح هؤلاء « الأغنياء الأقدمون » وقد قنطوا ، كالزنابير التى لا تقلع عن الطنين والإيذاء . فيصبحون وليس لهم من أمل إلا فى الثورة لفقدانهم الخير والشرف فى آن واحد . وأما أيسر أن تثار

هذه الثورة فقد عجم الفقراء عود الأغنياء على ظهر البوارج الحربيـة أو فى ميادين القتال وسبروا غورهم وانتهوا إلى القول بأن : « هؤلاء القوم ليسوا أقوياء إلا لأننا جبناء » . فيثورون فى أول مناسبة وينالون زمام الحـكم وبذلك تحل الديمقراطية محل الأوليغاركية .

هل الديمقراطية حكومة ؟ .. أليست جديرة بأن تكون حشداً ، كما يحدث فى السوق ، لما نشاء من أصناف الحـكومات فـكل فرد يحيا تحت ظلها بأسلوبه الخاص ، وفيهـا يجد أصحاب الطرق الحربة التامة لنشر تعاليمهم . وفى حماها تتأكد كل الطباع . ليس ثمة مايفوق هذا التأبين كثرة وتساهلا ، وما أكثر التسامح فى هذا الحـكم ! إذ يتحرك من حكم عليهم بالإعدام أو بالنفى فى حرية ويتغطرسون فى صلف كأنهم أبطال . ويفوز بالأصوات أكثر الأفراد طنطنة فى تنصيب أنفسهم قادة للشعب ، فلا يحاسب أحد عن نشأتهم أو عمن زكاهم . وفى هذه الغمارة حيث يستوى الـكهل والشاب ، والغنى والفقير ، والحر والعبد يتولى القيادة الزنابير الذين أسلفنا فيهم القول . فيقوم بالدعاية أكثرهم حماساً وكذلك يقترحون القوانين ، ويتزاحم الآخرون مطنطنين من حول المحـكمة خانقين كل صوت معارض : ولا عجب فهم السادة . يقسمون ثروات الأغنياء على الشعب محتفظين لأنفسهم بأوفر نصيب ، وتذهب شكوى الأغنياء أدراج الرياح ويساقون آخر الأمر إلى القيام بحركات يتهمون بتدبيرها للقضاء عليهم ، بمعنى أنهم يتآمرون ويثيرون الفتن .

ثمة رجل يحذق تملق الشعب على الدوام وينصّب نفسه حامياً له ، زنبار

ذو حمة حادة وشهوة مفرطة ، مستعد لكل انقلاب وإراقة للدماء إن بدت له من وراء ذلك السلطة والثراء . فيلغى الديون ويقتسم الأراضى ويشرّد الأغنياء ويقتلهم . أما خصومه وقد عجزوا عن القضاء عليه بالطرق المشروعة فإنهم يتخذون مسالك أخرى . وهذا ما كان يؤمل فيه : فيشكل هيئة تحرسه ومرعان ما « يتربع على عربة الدولة ظافراً » . وليس « حامى الشعب » فى أول عهده إلا ابتسامات ووعود وعطايا . ولكن كل هذا يختفى ويخبو (الحماس) الشعبى . فيثيره حامى الشعب بإعلان الحرب التى يؤكد فيها دور المنقذ . فأى وسيلة أخرى عسى أن تفضل هذه لإعواز الشعب ولكسر شوكته ؛ وأى ظرف أنسب من هذا للتخلص ممن يخشاهم ؟.. وعند ما تجأر الأصوات بالشكوى يخنقها فى لجة من الدماء ، ويبدأ بالقضاء على من صعد على أكتافهم ، وهكذا لا يرى من حوله إلا أعداء فينعزل فى حصنه كدابة متوحشة وهنالك يحيا تساوره الشكوك والمخاوف .

الطغيان ؛ تلك هى آخر درجة من درجات الانحطاط التدريجى . هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه الجور ، وهو أقصى ما يمكن أن تصل إليه الدولة من شقاء . وهل يكون الطغيان شيئاً آخر للطاغية نفسه ؟.. ولكى يفصل سقراط فى سعادة الطاغية أو شقائه يستحضر « صورة ذلك الذى عاش تحت سقفه والذى عرفه (سقراط) فى حياته الخاصة عارياً عن نقابه وعن مظهره التمثيلى » ويذكر هذا الأخير « أن الطاغية تضطره طبيعة سلطته إلى أن يصبح أشقى الناس وإلى أن يجعل الذين يحيطون به أشقياء مثله » .

إن أفلاطون الذى يحلل الطغيان ويحكم عليه فى شىء كثير من العنف نراه مع ذلك يحلم إن لم يكن يأمل فى استخدام هذا الطغيان فى سبيل تحقيق غاياته . ويتساءل أفلاطون فيما قبل أى فى الكتاب السادس من هذه المحاورة ، هل يستحيل إطلاقاً أن يولد أبناء الملوك والسلاطين مفطورين على روح فلسفية ؟ إن البيئة تفسدهم : ليكن هذا ولكن هل لإنسان أن يؤكد أن أحداً لن ينجو من هذا الوسط ؟ .. ما أيسر ما يتوصل إلى إقناع الشعب ! لأن للشعب روح طيبة فى الأصل . فلننوره فى رفق دون أن نشتجر وإياه ولنرشده إلى ماهية الفيلسوف الحق وحينئذ سوف يكلف به .

أما عن الفيلسوف فنحن نعرف أنه لن يسعى إلى فرض السعادة على وطنه عن طريق القوة . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الوطن الجدير وحده بالفيلسوف هو ما نعتزم إيراد صورته : إذ ليس لهذا الوطن من وجود إلى فى ذهننا بل الأفضل من ذلك أن نقول إن مثله « مَثَل نموذج فى السماء » وسواء كان ممكن التحقق أو كان غير ذلك فلن يدبّر الحكيم وطناً سواه .

خبرة صقلية ودستور الصلح

١ — تتويج طاغية شاب

فى الفترة التى كان يحرر فيها أفلاطون الكتب الأخيرة من محاورة الجمهورية، وذلك قبل معركة لوقطرس بمدة وجيزة ، كان دنيس الأول حاكم سراقوزا فى ذروة المجد .

كان دائما حليف اسبرطة وظل كذلك حتى النهاية . وانتقمت أثينا من هذا الحلف فى تهكم طالما آلمه . وكانت لدنيس ثقافة حقا : فكان يؤلف بنفسه التراجيديا والأشعار الغنائية وكان يصبو إلى مجد أدبى. وحين انحازت أثينا إلى جانب اسبرطة عام ٣٦٩ ، أرسل إلى أثينا إحـــدى سفاراته فاكتسب حق المدنيين . وفى أوائل عام ٣٦٧ صار حليفا لها : ولعل هذا أن يكون السبب فى أن تنال تراجيديته « دية هكتور» الفوز فى موسم الألعاب الليئية التى أقيمت فى تلك السنة. وتذكر بعض روايات مُغْرضـة أن ما تبع ذلك من لهو ومن مآدب كان سببا فى موته . والواقع أنه لم يمت إلا بعد ذلك بأشهر عدة .

ترك لولده الأكبر دنيس الثـانى إمبراطورية رائعة إذ انخرطت صقلية بأسرها تحت سيادة سراقوزا خلا الطرف الغربى الذى احتفظ به القرطاجنيون؛ وشمال كاليبريا الحالية فى إيطاليا حتى الخط الذى يمر من تروپيا إلى كوترونيا

وكان دنيس الثانى إبنا لدوريس اللاكرونية . ولكن دنيس الأكبر كان قد تزوج كذلك من أرستوماخى أخت ديون . وقد حاول هذا الأخير عبثاً ، أثناء مرض الطاغية ، أن يمكن ابنى أخته هيبا رينوس ونيزيوس من المشاركة فى السلطة . إذ مات دنيس قبل تحقيق رغباته ولم يرغب القواد الحربيون فى الانتقاص من الامبراطورية بتقسيمها ، فنادوا بدنيس الشاب ملكا .

وكان أبوه قد ظل بدافع الغيرة محتفظا به بعيداً على الدوام. فكان يُشْغَلُ إما بأعمال النجارة أو بمحاولات فى الشعر حيث أظهر طلاقه. إلا أنه ويا للأسف قد أمعن فى كل ضروب المجون . وأراد ديون الذى أخلص الخدمة للأب أن ينتشل الأمير الشاب من مزالقه الوعرة ومن براثن رائديه الذين هيئوا له سبل هذه المفاسد . وأمل ديون فى الوقت نفسه فى أن ينحاز بالسلطان الجديد إلى الملكية المستنيرة العادلة التى أصبحت مثله الأعلى منذ أن عرف أفلاطون . لذلك حرر لهذا الأخير أشد رسائله إلحاحا وراح يصور له عظمة هذه الإمبراطورية وذلك السلطان الذى اكتسبه ديون فيها والسهولة فى إصلاح دنيس الذى كان قد اتجه نحو الفلسفة والعلم ، والمعاونة التى سيجدانها فى أقارب الأمير من الشباب الذين زاملوه فى الدرس راغبين والذين شايعوه مختارين . وأخذ يهيب بالأمنية التى طالما تمناها أفلاطون ـ إلا وهى أن يصبح رؤساء الدولة أو أبناؤهم فلاسفة . وها قد حانت الفرصة أخيراً لتحويل قدرة طاغية شاب مطيع نحو الخير ولتأسيس مدينة كاملة بوساطته .

ولكن أنّى لأفلاطون الذى كان دائم الطعن فى الطغيان أن يلجأ مع هذا

إلى طاغية محاولا تحقيق مثله الأعلى ؟ . . ـ أليس فى ذلك تناقض ؟ . . ـ كلا ـ فالطاغية فى مشروعات أفلاطون ليس إلا إداة للانتقال ووسيلة مؤقتة. والطاغية هو القوة التى لها وجودها . فإذا استنار وإذا كرّس نفسه لخدمة الفكرة فسوف يتم التحول العسير من الفوضى إلى النظام فى أقل وقت ممكن وبأقل عنف ممكن. « وسوف يصطف المواطنون فى سرعة تحت إرادة الرجل الذى يملك فى يديه القوة والقدوة » وسيطيعونه بالقدر الذى يجعل من نفسه مثلا يحتذى « بممارسته لكل الفضائل » فليس ثمة حينئذ طاغية أو طغيان بل دولة ذات دستور كامل وحاكم فليسوف ينشئ تابعه أو تابعيه على احترام هذا الدستور . وجد أفلاطون فى هذا استدلالا صحيحا وصادقا . ولكن خبرته فى صقلية ستثبت له إثباتاً قاطعاً إن أعلى الاستدلالات درجة فى المنطق لا تنطبق على الواقع دون تعديل .

كان أفلاطون يبلغ الثالثة والستين عاما حينما دعاه ديون إلى بلاط سراقوزا. وكان نفوذه وبعد صيته عظيمين لا فى أثينا فحسب، حيث كان نجاح « المفكرين وصغار المفكرين » ، كما ذكر أرستوفان ، دائما أقل بكثير من نجاح الجمعيات والحدّيثين ، بل فى اليونان بأسرها . وقد جاءه الطلبة من كل حدب وصوب من ميغاريا أو من أخِيَة وأركاديا ومن إيليديا ، ومن جزائر لسبوس وقبرص ، ومن مدن آسيا كتروادة وفريجة وبونتا . وكانت لوقريدا ومقدونيا وتراقيا تبعث إليه كذلك بشبابها الممتاز . وما أن كاد يعود طلبة الأكاديمية إلى بلادهم حتى يقومون فيها بدور سياسى فى أغلب الأحيان . فبرز منهم كثيرون

فى التشريع واشتهر آخرون بالدفاع عن الحرية ضد الطغيان. وكان ممن يستمعون لأفلاطون فى ذلك الحين إيفريوس من أوريا فى أيونيا الذى سرعان ما ظفر بنفوذ عظيم فى بلاط مقدونيا تحت حكم برديكاس والذى لا بد وأن يكون قد مات أثناء دفاعه عن استقلال اليونان ضد فيليب .

وأخيراً ، كان أفلاطون قد نشر فى تلك الحقبة ما يقرب من عشرين محاورة . وجاءت من بعد مؤلفة الضخم «الجمهورية» محاورة «فدرس» شرعة واضحة فى الحب الصافى واللغة العذبة ومن المحتمل أن تأتى بعد ذلك درامة « برمنيدس» معجزة الميتافيزيقا تلك المحاورة المويصة الآخذة بمجامع القلوب. ولما بلغ قمة المجد الأدبى أخذ يتحول شيئا فشيئا نحو المشاكل المنطقية والمنهجية. وانغمس كذلك فى تاريخ الفكر المتقدم عليه . وحاول أن يخط طريقه فى وضوح بين أولئك الذين لم يروا فى العالم إلا تغيراً وحركة وأولئك الذين اعتبروا حركة الأشياء وحركة السماوات نفسها مجرد خداع . فأخذ يفكر فى محاورة طويلة يعرض فيها بأسلوبه الخاص نشأة العالم وتكوينه . وعلى هذا النحو حل أفلاطون محل عبث أصحاب الأساطير الأقدمين وأصحاب الكونيات الغابرين وسخّر أحسن ما وصل إليه العلم الحديث ذلك العلم الكافر عادة فى خدمة مثاليته .

أكان عليه إذن ، كما تذكر الرسالة السابعة « أن يهجر هذه الأعمال التى لا تخلو من مجد ؟ » إن الحياة فى ظل الطغيان تتناسب قليلا مع مزاج المؤلف ومع رئيس المدرسة ومع الحالة التى كان عليها . ولكن أليس الإعراض عن

الظرف المناسب معناه «التحول إلى اللغو» الذى لا يصلح إلا لإنشاء مدن فى الهواء ؟ .. ـ أليس فى ذلك غـدر بصداقة ديون وصـداقة الفلسفة فى وقت واحد ؟ .. ـ عزم أفلاطون على أمرما . فعهد بالمدرسة إلى أحد طلبته الأقدمين هو إسبيزيبوس ابن أخته فتونى ، أو ربما عهد بها إلى أيودوكس ، ثم رحل فى ربيع عام ٣٦٦ فيما يحتمل .

٢ — أفلاطون ودنيس الأصغر

استقبله دنيس الأصغر فى كثير من الإجلال إذ كانت هذه الزيارةُ ترضى فيه الفضول والكبرياء معاً . ولكنه وجد القصر مليئاً بالانقسامات والدسائس . وقد خَشى نفوذه أنصارُ الطغيان التام فأعادوا ، رغبة فى مقاومة هذا النفوذ ، المؤرخ فيلستوف من منفاه ، وكان قد أبعده دنيس منذ عشرين عاما خلت . عاون فيلستوف هـذا الأخير على أن يصل إلى السلطة وكان تام التأهب لأن يخلص لابنه ولأن يؤيده فى الطريق المستقيم . وأخذت الدسائس تتزايد ضد ديون . وكان دنيس الأصغر ميالا للاستماع لها ـ فقد كان يعرف المحاولات الفاشلة التى بذلها ديون لصالح ابنى أخته ، ولما كان قد ورث الامبراطورية بأسرها رغما عنه أخذ يعانى فى عسر وصايته السياسية أو الأخلاقية ولم يكن يتحمل هـذا كله إلا بدافع الخوف مثله فى ذلك مثل طفل كبير .

ومن المرجح أن أفلاطون نزل ضيفا على ديون . فقد كانت الدسائس على أشدها فى القصر . وها قد حصل حزب فيلستوس بعد مضى ثلاثة أشهر

على الحجة التى كانوا يبحثون عنها . كانت جميع المعاهدات قد نسخت بمجرد تغير شكل الحكم وكان من الواجب أن تعقد مفاوضات مع القرطاجنيين بصفة خاصة . فعثروا خلسة على خطاب من ديون ، الذى كان هو الوسيط على الدوام فى مثل هذه المفاوضات فى الحكم السابق ، يلتمس فيه من القرطاجنيين ألا يدخلوا فى أى مفاوضة لا يكون هو مُمثّلاً فيها . فنادى أعداؤه بأن ثمة خيانة واعتبروا مشاريعه الإصلاحية مؤامرة ضد نظام الحكم . فاستقل ديون سفينة صغيرة نقلته إلى إيطاليا . ورحل من هناك إلى كورنثوس . ورافقه أخوه ميجاكلس أو لحق به .

وكان انفعال أصدقاء ديون عنيفا . وذاع فى سراقوزا أن أفلاطون قد أعدم باعتباره مدبر المؤامرة المشهورة . ولكن دنيس حين تحرر ، ما كان ليقبل أن يحسب عدواً للفلسفة . فإن احتفاظه بأفلاطون قد جعل نفى ديون يظهر على أنه مجرد أبعاد وأبعاد وقتى فحسب بل وربما كان يحتفظ به كرهينة . فلم يكن ديون ليجسر على القيام بأى عمل طالما كان يعرف أن أفلاطون تحت رحمة دنيس . وأخذ هذا الأخير يلح على أفلاطون إلحاحاً شديداً فى البقاء ولكى يجعل هذا الإلحاح على أعظم درجة من الإقناع . سلب أفلاطون كل وسيلة لمغادرة سراقوزا بأن ساقه إلى الأكروبول وجعل له فيه مقاماً . وكان دنيس الكبير قد أقام قصره فى جزيرة أورتيجى التى يصلها برزخ بالمدينة وهناك كانت كنوزه وعائلته وجنوده المرتزقة . فكانت كل محاولة للخروج من المدينة دون تصريح خاص لا بد وأن تذهب أدراج الرياح . ومن ثم كان أفلاطون ضيفا سجيناً .

ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان إذ أراد دنيس وهو الرجل الغيور بدافع الزهو ليس إلا أن ينتزع من ديون صداقة أفلاطون وأن يستأثر بها لنفسه ، وحاول أن يكتسب الفيلسوف إلى جانبه ففتح له أبوابه مرّات متكررات وأنصت إليه وأخذ يشارك بنفسه فى العمل ما وسعه ذلك . ولم يجسر مع ذلك أن ينخرط فى مدرسته بصورة جدية ، إذ خشى أن يسلم نفسه بذلك للوصاية التى أعدها له ديون فى كثير من البراعة على حد تعبير رجال القصر . وعلى العكس من ذلك تعلق أفلاطون فى تخيلاته بأمل إرجاعه إلى إلى الفلسفة والتوفيق بينه وبين ديون يوماً ما .

ولكن تلك النفس المتبدّلة ، نفس دنيس المزهو الضعيف انفلتت من قبضة أفلاطون ، وأخيراً وجد دنيس نفسه قد شُغل بأمر حرب من الحروب لعلها أن تكون الحرب ضد اللوقيين ، فأطلق سراح الفيلسوف بعد أن تقاضاه وعداً بأن يعود بمجرد أن تضع الحرب أوزارها ووعد هو نفسه وإن لم يكن صادق العزم فى إنجاز ماوعد ، أن يدعو ديون فى نفس الوقت الذى يدعو فيه أفلاطون .

عاد هذا الأخير إذن إلى الأكاديمية فوجد فيها من بين الطلبة الجدد شابا يبلغ ثمانية عشر عاما سوف يصبح تلميذه المثابر لمدة عشرين عاماً . ذلك هو أرسطو من استاجيرا ابن أحد أطباء ملك مقدونيا أمينتاس الثانى . وبمجرد أن عاد أفلاطون استأنف العمل فنشر محورة تيتاوس إن لم يكن قد نشرها من قبل ، وألف محاورة السفسطائى . وقد كان لهذه المحاورة هى والدروس التى

تشرحها فضل توجيه أرسطو نحو المنطق الذى سوف يصبح مؤسسه من بعد. أما حججه الشهيرة ضد نظرية الحقائق المعقولة أو المثل فقد استعارها أرسطو كذلك من أفلاطون نفسه ومن محاورة برمنيدس .

وأخيراً ، أصبح للأكاديمية فى شخص ديون عضواً مبرزاً . ولما لم يكن منفيا بصفة رسمية أخذ يتلقّى إيراده بأسلوب راتب فكان يصرف ببذخ . وقام بعدة رحلات زار خلالها البليبونيز وأنعمت عليه اسبرطة بحق المواطن وشارك فى الأعياد الكبرى وصادق كثيرين وجدد العهد مع آخرين . وكان أليفاً فى الأكاديمية بوجه خاص . ثم صار مواطناً أثينياً فابتاع قطعة أرض أهداها لسبيزيبوس فيما بعد وتبرع لأفلاطون بنفقات حفل عام . وكان يقطن منزل كاليبوس الذى راده على أسرار أيلوزيس. سعد أفلاطون ن يرى ديون محاطا بطائفة من الشباب الحى إذ أن مزاجه الحاد كان فى حاجة إلى أن يعدّل وكانت صلابته المعتادة فى حاجة إلى أن تلطّف .

استمر دنيس فى تلك الأثناء فى حب استطلاء الفلسفى كما استمر فى استدعاء الفلاسفة . فحضر من أثينا سفسطائى يدعى بيكسين وأيشينوس السقراطى من أسفتوس وهو الذى رأيناه لدى ليديس فى ميغاريا مع بعض الطلبة الآخرين . وحضر أرستبوس من قورينا . وكان ماجنا مرحا قابلا على الدوام لأن يلائم بين نفسه وبين الأحوال التى تحيط به ، وقد بشّر ، قبل أبيقورس بمدة طويلة ، بأن اللذة هى الخير الأسمى . وكان حقاً أصلح رفيق لدنيس. وقد

أفاد منه دون حرج وما كان لأى عمل دنىء أن يروّعه ما دام فى مقدوره أن يثأر لنفسه بنكته لاذعة .

ولـكن دنيس كان يطمع فى أكثر من ذلك . فحاول أن يفرض نفسه على ضيوفه وزوّارة العابرين بما وعاه من فتات العلوم التى تخلفت فى ذاكرته من دروس أفلاطون ومحاوراته ومحادثاته . وشرع كذلك فى كتابة بحث عميق فلما تولاه الارتباك فى سرعة طرق كل وسيلة ممكنة لاستدعاء أفلاطون . فكتب إليه وجعل أرخيتاس وأصدقاؤه من تارنتا يكتبون له وأوفد إليه بعض الصقليين وأخيراً بعث إليه بسفينة لِتُقِلّه . ووعد أفلاطون بأن حضوره سيزيل كل ما بينه وبين ديون من مشاكل ولـكنه لم يقلع عن إمهال هـذا الأخير . وإذ آمن ديون فى ثقة كما آمن أرخيتاس كذلك بصدق « فلسفة » دنيس ، ولما كان فى نفسه حنين إلى سراقوزا شدد على أفلاطون فى قبول الدعوة . وأمام هذا الإغراء رحل أفلاطون غير راغب فى الرحيل : فقد بلغ السادسة والستين .

وسرعان ما تقلب عليه دنيس فخبت جذوة الحكمة التى كاف بها هـذا ، أمام خطة فى العمل جدّية ومجهود كان عليه أن يأخذ به نفسه . ولم تمنعه ميوله الطيبة نحو ديون من أن يوقف إرسال إيراداته . ولما كان الصيف الذى جلب معه الرياح المناسبة للابحار رغب أفلاطون فى الرحيل بعد أن تبدد وهمه ، ولـكنّ دنيس أبقاه عن طريق وعود جديدة وكان أفلاطون بدوره يظن أنه سيصل إلى إنقاذ ثروة ديون . ومع هذا فقد نشرت السفن شرعها . ولما زال

هذا الخطر تملك دنيس أفلاطون من جديد وسكت مهده وأقدم فى جرأة على بيع ممتلكات ديون . وحيا أفلاطون حياة مملوءة « كالعصفور السجين » . واستمر الفيلسوف والطاغية يظهران أمام الجمهور بمظهر الأصدقاء . ولكن آثار غضب دنيس تدخل أفلاطون لصالح هرقليد الذى اتهم بإثارة الفتنة بين صفوف المرتزقة . وتمكن هرقليد من الهرب ولكن أفلاطون أفضى إلى نفس موطن المرتزقة وكان فى إصلاح الطغيان تهديد لصالحهم الشخصية ومعنى هذا أنهم لم يكونوا ليرضوا قط عن ذلك للبشر ومن ثم عاش أفلاطون فى خطر تام . وتمكن لحسن الحظ من إخطار أرخيتاس فأرسلت له حكومة تارنتا سفينة ذات ثلاثين مجداف وأشعرت دنيس بأن رحيل أفلاطون أمر لا محيص منه .

٣ — ديون فى سراقوزا

تقابل أفلاطون وديون فى موسم الألعاب الأولمبية فى نهاية هذا الصيف من عام ٣٦٠ . ولم يكن لديون ، بعد أن تحرر من كل ممتلكاته ، من عون سوى السلاح . هذا وقد عرف أن دنيس كان سيزوج أخته لأبيه ، وهى أرتيه زوجة ديون ، من تيموقراط . فلم يبق أمام ديون إلا الأخذ بالثأر . كان أفلاطون قد نزل على دنيس إرضاء لديون ورغبة فى مساعدته ، وهو على استعداد على القيام لأن يتدخل إذا سنحت الفرصة محاولا التوفيق ، ولكنه لم يعد فى حالة بحيث تسمح له سنه أو طبيعته بأن يخرج عما هو فيه من هدوء وطمأنينة . ولكن قلبه كان متعلقا بديون . فسمح لطلبة الأكاديمية بالانخراط فى خدمته

وكان فى ضمنهم اسبزيبوس وكاليبوس وأخاه فليوستراتس وإذيموس من قبرص وتطوّع من دونهم كثيرون . وتحركت الحملة التى لم تكن تزيد عن ثمانمائة رجل وخمسة سفن فى شهر اغسطس من سنة ٣٥٧ .

أحبط ديون خطة فيلستوس الذى وجه همه نحو البحر الادرياتيكى بأن اتخذ طريقه فى البحر الأكبر . وهبط على الشاطئ الجنوبى . ولما علم أن دنيس كان فى إيطاليا أسرع فى اتجاه سراقوزا وجمع خمسة آلاف رجل فى طريقه إليها . وفتحت أمامه سراقوزا الأبواب على مصاريعها فدخلها دخول الظافر يؤيده أخوه ميجاكلس وكاليبوس الأثينى وأعاد الحرية للشعب ، فنادى الشعب — بدوره — بديون وميجاكلس « رئيسين مطلقين للجيش » .

حوصر تيموقراط فى قلعة اورتيجى ولكن دنيس حضر لنجدته بعد سبعة أيام . وسيطر من هناك على البحر . وأشرف كذلك على المدينة وأخذ يبذر بذور الشقاق بين شعب سراقوزا وديون . هذا وقد كان ديون رئيسا منتخبا . ثم حضر هرقليد ، الذى كان أفلاطون قد أنقذ حياته ، فى يوم مامن البلوبونيز تصحبه فرقة من الجند وبعض السفن . فانتُخِبَ رئيسا أعلى للقوات البحرية . وكان لديون من الرعونة ماجعله يحتج على هذا الانتخاب ثم يعود بنفسه إلى تعيين هرقليد فى هذا المنصب . وكان هرقليد رأسًا مفكرًا ولكنه كان دسّاسًا لا يمل الدسائس وخطيبًا مفوهًا . وقد تمكن إما عن طريق الصدفة أو عن جدارة من هزيمة أسطول فيلستوس فى الميناء الكبرى حين عاد الأسطول من الادرياتيك . وأُسر فيلستوس ثم أُعدم . وفردنيس إلى

إيطاليا تاركا القلعة فى حراسة ابنه الأصغر ابولوقراط .

أضعف هرقليد مركز ديون إلى حد كبير حتى عُزل هـذا الأخير والتجأ إلى بلدة ليونتينوا . ولـكنه لم يلبث أن عاد منها سراعاً استجابة لدعوة أهل سراقوزا وهرقليد نفسه لإنقاذهم : فقـد تلقت القلعة مدداً من إيطاليا . وبينما كان النـاس مستغرقين فى الاحتفال بعيدهم وقد لعبت الخمر برؤوس القواد والجنود أشعل مرتزقة دنيس النار فى جزء من المدينة وأهرقوا دماء أهليها . وكان ديون يستطيع أن ينفى هرقليد ولـكن سماحة نفسه كفيلسوف أبت إلا أن تعفو عنه . ولم تـكن لديه ويالأسف أية مرونة أو أية مقدرة على استهواء الشعب . فأتيح لهرقليد أن يجعل منه شخصاً مبغوضاً . أراد ديون أن يشرّع دستوراً معتدلاً نافذاً ، وأراد شعب سراقوزا أن يحكم نفسه وأن يلهو فى حرية . وكان ابولوقراط قد ملّ البقاء فى القلعة فانتهى به الأمر إلى التسليم ، فلم يعرف ديون كيف يحقق الرغبة التى أفصح عنهـا الشعب وهى أن يحطم معقل الطغيان هذا وبذلك أفسح مجالاً لارتياب أحسن هرقليد استغلاله فأخذ هذا الأخير يدعو إلى الديمقراطية وإلى توزيع الثروات كما حاك الدسائس لديون لا عند الشعب فحسب بل وعنـد دنيس أيضاً ، وأعيت ديون (تلك الدسائس) فـكان ان أخذ بنصح أصدقائه وسمح باغتيال هرقليد اغتيالاً دنيئاً بينما كانت لديه فرص عديدة تمـكنه من استصدار حكماً قانونياً بإعدامه .

وفوق ذلك فإن مشروعاته نفسها كان من شأنها أن تسوقه إلى الطرق التى يسلـكها الطغاة عادة . فلـكى يتمكن من فرض إصلاحاته ظل محتفظا

بالجنود المرتزقة ، ولكى يؤدى لهم أجورهم احتكر أول الأمر أموال أعدائه ثم وجد نفسه بعد ذلك مضطراً لأن يثقل كاهل أنصاره بالضرائب الفادحة . وكان ديون يثق ثقة مطلقة بكاليبوس فاستغل هـذا الأخير تلك الثقة ولعل دنيس أن يكون قد أغواه ، وعمل على القضاء على ديون فأثار كاليبوس وأخوه فيلوستراتس ، ضد ديون ، أصدقاء هرقليد القدماء كما أثارا من لم يرضهم الحكم فلما وقع ديون على حقيقة الأمر لم يشأ أن يقاتل قائلا « إلا أن الحياة لم تعد تحتمل إذا كان على أن أقتل الآن أصدقائى بعد أن قتلت هرقليد . » ثم اغتاله فى قصره بعض المرتزقة ممن استأجرهم كاليبوس وذلك عام ٣٥٤ . وكان قد بلغ عامه الخامس والخمسين .

ونودى بكاليبوس بدوره محرراً للشعب وبذلك صارت له السلطة . ثم ثار أصدقاء ديون للمرة الأولى وكان من نتيجة هـذا أن خرّ أوذيموس صريعاً فى المعركة ، وأهدى إليـــه أرسطو محاورته « فى النفس » . وأخيراً ، توصل هيباريتوس أحد ابنى أخت ديون إلى استرداد سراقوزا . وتوقفنا كل من الرسالتين السابعة والثامنة على مبلغ ما كان يساور أفلاطون من قلق ، فى تتبعه لهذه الحوادث جميعاً . وتجيب هاتان الرسالتان على أصدقاء ديون الذين يسألونه النصح بعد ثورتهم الأولى وبعد انتصار هيباريتوس . ولكن هاتين الرسالتين تتوجهان فى الواقع إلى الجمهور وهما : دفاع وبيان سياسى فى الآن نفسه . يروى فيهما أفلاطون رحلته الأولى وعلاقته بديون ونزوله ضيفاً على قصر دنيس الأصغر مرتين متتاليتين ومحاولاته التى منيت بالفشل فى سبيل

تدارك الخصومة الحادة بين ديون ودنيس . وذكر فيهما الآمال التى علقها على ديون والتى خيبتها جريمة أحد الخونة . وأخيراً ، يرسم فيهما سبيلا للسلوك ليتبعه أصدقاؤه فى سراقوزا ويصيغ من جديد مبادىء الحكمة السياسية التى لن يتحقق بدونها سلام للدولة .

٤ — مشروع حكومة معتدلة

يميز فلسفة أفلاطون كلها اتجاه مزدوج : الرغبة فى الكمال المطلق فى المعرفة وفى العمل والتسليم بالقضاء الذى لا مفر منه لكى يتمكن الإنسان على ضعفه من تحقيق أكبر قدر ممكن من هذا الكمال المثالى . إن الرؤية السعيدة والدأب على التحليل والعلم الصادق والرأى الحق ، والهروب من هذا العالم والتكمل بالحقيقة وحياة التأمل والرسالة التى يتعين على الإنسان أن يأخذ نفسه بها ، كلها أشياء جوهرية تواجه كل تفكير فلسفى أو دينى يتوخى التسامى بالإنسان . فلا بد من أن نقشوف الذرى ونهيء أنفسنا لاعتلاء القمم . وإنا لنلمح فى أفلاطون شاعراً وشخصاً كشفت عن بصيرته الحجب . وإنا لنطالع فيه أيضاً ذلك الحكيم الذى جُبل على الاعتدال وعلى النصف فى الحكم ، وتدلنا الرسائل إلى أصدقاء ديون ومحاورة السياسى والقوانين على أن أفلاطون بعد أن تقدمت به السن وحنكته التجارب أخذ يميل شيئاً فشيئاً نحو ما كان يدعوه هو نفسه « بالمراتب الثانية » .

إن الغرض من محاورة السياسى هو تعريف رجل الدولة . فإذا أخذنا

النظرية على حرفيتها كان العلم دليلاً لايخطئ على الحاكم الصالح . وإذ كان الحاكم طبيب المدينة فليس يعنيه أن يتقيد بالقواعد والقوانين التى يحول مافيها من إعنات وصلابة من المؤامة بينها وبين واقع الحياة الجارية . وليس ثمة قانون إلا ما لديه من علم محكم مرن صادق على الدوام . وهو فوق ذلك لا يلتمس تأييداً من أحد : فله أن يستخدم الإقناع أو القوة حسبما تقتضيه الحاجة فإن خيرية فعله ستكون معياراً لماله من حق فى جميع الأحوال . والحكومة التى يرأسها هى وحدها الحكومة الكاملة : أما الحكومات الأخرى فليست سوى عصابات . ها هى نظرية متسقة تمام الاتساق وإنا لنجد أفلاطون الذى كان يكلف بالتوسع فيها يصنف هذه الشيع أو هذه الهيئات الموجودة : فإن وصفه للديمقراطية المتطرفة هو هجاء لاذع نستشعر فيه أيضاً الأثر السيء الذى تركته محاكمة سقراط فى نفس أفلاطون. ولكن أنّى لنا بهذا الملك النموذجى؟ « فما حدث قط أن نشأ ملك فى المدن كما يحدث فى خلايا النحل ثم أصبح بمجرد ظهوره متفرداً بقوة فى الجسم وأصالة فى النفس » سينصب الناس يقيناً هذا الملك الخيّر الذى لايخطئ ولكن أحداً منهم لايستطيع أن يعتقد أن إنساناً له من القدرة مايعينه على حمل هذا النفوذ الذى لا حد له . فهم يدركون أن الرئيس الذى لايقف فى سبيله شيء سينتشى بسطوته إلى الحد الذى يفقد معه كل ما لديه من روية وما يتحلى به من صفات إنسانية . فلزام علينا إذن أن نخضع لفريق أكثر تواضعاً وأن نقدس حكومة القانون .

وتذهب الرسائل إلى نفس هذا المذهب « إن الخضوع لله أمر مألوف ،

ولـكن الخضوع للإنسان يخرج بنا عن جادة الصواب » . وترسم هـــذه الرسائل لأحزاب سراقوزا على اختلاف أنواعها خطة حكومة يسودها الوئام والسلام . فينبغى أن نعيد العمران إلى المدن اليونانية وأن نجمع بينها فى اتحاد كبير . وذلك بأن يحكم سراقوزا ، وهى الأولى بين المدن المتساوية ، ثلاث ملوك يمثل كل منهم أحد الأحزاب التى تتنازع الحـكم . تـكون لهم سلطات دينية على وجه الخصوص لأن السلطة المدنيـة سيشرف عليها خمسة وثلاثون من القائمين على رعاية القوانين . وسوف تتحقق بين جميع المواطنين مساواة ومشاركة تامة فى الحقوق . أيعدو هـذا النظام السخى أن يكون حلماً من أحلام الفيلسوف ؟ .. ومع هذا فهو يشبه إلى حد كبير ذلك النظام الذى حقّقه تيموليون الـكورنثى بين عام ٣٤٥ وعام ٣٣٧ . وقد وجد أفلاطون سياسته المثلى فى هذا البطل الذى اعتزل الديكتاتورية وآثر أن يموت كفرد بسيط بعد أن حرر صقلية وأقام ديمقراطية معتدلة فى سراقوزا .

وأخيراً ، فقد كرّس أفلاطون السنين الأخيرة من حياته فى تأليف سفر ضخم هو محاورة القوانين التى لم يتسع له الوقت لأن ينشرها بنفسه . عرض فيها فى تفصيل نموذج الحـكومة التى وإن لم تـكن أفضل الحـكومات إلا أنها « تقرب من أفضلها قدر المستطاع » . ومحاورة القوانين هى قانون دولى دينى مدنى وجنائى . ويمهد لـكل قانون فى هـذه المحاورة بعرض للدوافع والروادع الأخلاقية ، ذلك أن المشرع الأفلاطونى هو مرب : يشرح ويقنع قبل أن يأمر .

لم يتخل أفلاطون عن مثله الأعلى . فما الذى تتطلبه إذن إقامة دستور كامل فى أسرع وقت ممكن ؟ .. الأمر يتطلب وفاقاً بين طاغية شاب فيلسوف ومشرّع حكيم . ولكن أفلاطون كان يزداد اقتناعاً بأن الطاغية الفيلسوف لا وجود له وأن السلطة المطلقة من شأنها الفساد . ألم يكن أفلاطون يفكر حقاً فى الماضى البعيد ، ألم يعدّل من موقفه حينما أخذ على بعض مشرّعى العصور الأولى إغراقهم فى الخيال بقولهم « إن دين الوعد كفيل بأن يحصر فى حدود عادلة رغبات أمير شاب ورث سلطة يمكن أن تصل به إلى الطغيان؟» ألم يكن كذلك يريد « ألا نُقِيم سلطة ما لم تكن معتدلة » . وهو يكافح إلى جانب ذلك كل حرية متطرفة . أما الدستور الحكيم فيجب أن يجمع بين الملكية والديمقراطية فى آن واحد ، أما الابتعاد عن هذا الوسط العدل فمعناه أن ننحو نحو الاستبداد كما فعل الفرس أو ننحو كما فعل الأثينيون نحو الفساد المطلق . ويقول أفلاطون عن الديمقراطية الأثينية أنها أصبحت مهزلة مسرحية.

أما الحكومة التى يقترحها على غرار الأرستقراطية اللاقوديمونية وديمقراطية سولون فهى كما كان يُقال فى القرن التاسع عشر حكومة دستورية مقيّدة . وتتكوّن من سبعة وثلاثين مشرفاً على القوانين وثلاثة قواد ومجلس شيوخ أعضاؤه ثلاثمائة وستون . ينتخب المواطنون جميعًا كل هيئة من هذه الهيئات. ولكن المواطنين ينقسمون إلى أربع طبقات تبعًا لما يفرض على ثرواتهم من ضرائب ، ولما كان التصويت إلزاميًا على الطبقتين الأوليين فقط فإن امتناع الطبقتين الأخريين فى أغلب الأحيان عن التصويت سوف يخفف من حدة

نظام الانتخاب العام . ويدلنا الدور الذى تلعبه المِلْكية فى هذا النظام على أن أفلاطون قد نبذ الشيوعية بل ونبذ الشيوعية الجزئية التى نادى بها فى محاورة الجمهورية ، وهو وإن كان لا يزال ينظر إليها باعتبارها المثل الأعلى إلا أنه قد علم أن تطبيقها متعذر « بالنسبة لأناس ولدوا ونشأوا فى مثل الحال التى هم عليها اليوم » فعاد إلى إقرار الزواج وجعله فرضاً على كل مواطن . وكانت الأخلاق منحلة فى عصره إلى حد لم يجرأ معه على تشريع قوانين تمنع الحب المنافى للطبيعة . ولكنه يحكم عليه حكماً قاسيًا وباستنادة إلى إجراءات متزنة يريد أن يخلق رأياً عامًا يرى فى هذه الرذيلة عاراً وفحشاً . وإن ما قاله عن الغاية من الزواج وما له من قيمة يجعلنا نفكر فى أغلب الأحيان فى وصايا الأخلاق المسيحية .

ولكن ويا للأسف لا يزال أفقه محصوراً بالحدود الضيقة التى كانت فى المدينة اليونانية ، فهو يذهب إلى حد القول بأن الدولة يجب أن تحتوى خمسة آلاف وأربعين أسرة فقط ، وأن تتخذ الحيطة لمنع تزايد السكان السريع . ولكنه كان يعنى هنا الهجرة بوجه خاص ، ولم يذكر شيئا كما ذكر فى محاورة الجمهورية عن إلقاء الأطفال فى العراء أولئك الأطفال الذين لا ترى الدولة حاجة إلى تربيتهم . وأن المرأ ليقشعر حين يصف أفلاطون وأرسطو فى غير ما حرج طرقاً عملية كهذه . ولا غرو فقد كانت مثل هذه الطرق شائعة فى اسبرطة وفى أثينا نفسها . ويبدو أن الحياة الإنسانية لا يمكن أن تكون لها قداسة قبل أن يفتديها مخلّص إلهى .

٥ — الأسس الروحية للدولة

وبالرغم من ذلك أحب أفلاطون الأطفال ورغب كذلك فى أن يظل الطفل بين أحضان ظئره وسيتوفر مشرّعنا على الاهتمام بصحة الأطفال وعلى مايلابس التكيف الجسمى والأخلاق من أزمات وسيهتم بالألعاب وبالرياضة البدنية وبالرقص والولائم . نعم سيعنى بهذا كله وسيدخل فى التفصيلات ويعتذر مبتسما عند الحاجة عن تلك التدقيقات الصارمة . وكان يقر بما للكوميديا من فائدة فى تقويم الأخلاق والعادات ومع ذلك لم يكن أقل اعترافاً بأن حرفة مؤلفى المهازل حرفة دنيئة حرّمها على المواطنين . وهو وإن لم يستبعد شعراء التراجيديا إلا أنه قصد فى وضوح إلى عدم السماح لهم « بأن يروجوا بين الناس تعاليماً تتعارض مع ما يُبشر به المشرّع » . فجعل هذه الأشعار تمر إذن « على الرقابة قبل أن تنشر » . وكان يصر على تدريس علم الأعداد والحساب والهندسة والفلك : فيجب على كل رجل حر أن يعرفها معرفة ابتدائية على الأقل . وأخيراً ينشىء أفلاطون وزارة للتعليم : فكان « على الرؤساء أن يقترعوا فى نهاية كل خمس سنوات من بين المشرفين على القوانين من يتوسمون فيه القدرة على تولى أمر تربية الشباب » .

ولم ينس أفلاطون الطابع الفلسفى والإجمالى فى التعاليم التى لقّنها لحراس المدينة المثلى فى محاورة الجمهورية . وفى هذه المحاورة كذلك يجب أن « يُبين صفوة الحراس عن ذكاء » . فلا ينبغى عليهم أن يقفوا عند تحصيل العلوم التى

يتلقاها الأحرار فى عمق فحسب بل عليهم فوق ذلك أن يلقوا بالاً لما بينها من علاقات متبادلة وخاصة علاقتها بالفضيلة وبالجمال وبالخير . فهو فى آخر الأمر العلم الذى يتوج العلوم الأخرى وهو ما يسميه أفلاطون « بالإلهيات » . فعلى رؤساء الدولة أن يبرزوا فى هذا العلم « إذ لا يمكن أن نعهد بحكم المدينة إلى أناس لا يعرفون كل ما يمكن معرفته عن الآلهة » . ذلك أن الجهل بمثل هذه الأمور يورث الإلحاد ، وهذا بدوره يحمل على العنف وعلى الاستهانة بالقوانين .

إلا أن هذا الجهل ويا للأسف شديد الانتشار . ويُحزن أفلاطون ويحنقه أن يرى من الضرورة بمكان أن نثبت اليوم للشباب وجود الآلهة ووجود العناية الإلهية . أصبح هذا الأمر لا محيص عنه ما دامت هنالك نظريات تدعى أنها نظريات علمية قد لقنت كل غاد أن العالم ليس نتيجة عقل إلهى ولكنه من صنع الطبيعة والصدفة فحسب .

شغلت هذه المسائل أفلاطون منذ أمد بعيد . فهاجمها فى فقرات من محاورة السفسطائى . وذكر فى محاورة فيليبوس « إن نفساً عالية وعقلاً سامياً يدبر نظام هذا العالم » . بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك : فقصّ فى محاورة تيماوس قصة حدوث هذا العالم أو الله المرئى صورة الله المعقول . إن الله خيّر ولما كان منزه عن الحسد ودّ لو يكون كل شىء على صورته إلى أقصى حد . فتناول المادة إذن وهى فى فوضى بالغة وظلمة مضطربة ، وهذا ما جُبلت عليه ، فنفخ فيها العقل والغائية وهكذا جعل منها نظاما وعالما وهو أحسن عالم وأكمل عالم ممكن .

ومحاورة تيماوس محاورة علمية . يصحح فيها أفلاطون العلم المادى فى زمانه ليفيد منه فى تفسيره للكون وفى تفسيره للإنسان . ويصحح فيها كذلك الكونيات القديمة وبدلا من أن يحذو حذو هذه الكونيات فيجعل أصل الأشياء مبدأ أعمى غير مروٍ وبدلا من أن يقول بسبق السماء والأرض فى الوجود ثم يتبعهما بالآلهة وبالعقل الإلهى ، قال أولا بعلة عليا وهى الله الذى خلق بفضله النفس التى تتصور النظام الأمثل فتفرضه على المادة . ولكننا لا نجد عند أفلاطون تعريفاً واضحاً لهذا الإله كالذى ينشده القراء الذين ألفوا وضوح اللاهوت المسيحى : فهذا تعريف لم يصل إليه أى مفكر قديم سواء أكان سابقاً له أو لاحقاً عليه . ومع ذلك فان الله الذى قال به أفلاطون هو الكائن المطلق والعقل الكامل والخير الشامل فى آن واحد . فلئن كان العالم إلهيا فما ذلك إلا « لأن الله يحل فيه » . وهذا الحضور الإلهى هو النظام الذى أوجده عقله المبدع للنظام . « فحيث لا يوجد الله لا توجد إلا الفوضى والتشويش » .

ليس الإيمان بالله لدى أفلاطون مجرد مظهر . وليس هو تظاهر المصلح السياسى حين يلقن الشعب صيغاً ليست صادقة إلا باعتبار فائدتها الاجتماعية . فأفلاطون يؤمن بالله كما يؤمن بحقيقة وعدالة لا تتبدل . ولم يكن أقل من ذلك اعترافاً بما للمعتقدات الدينية من حسنات وضرورات اجتماعية . ولم يقنع كذلك بالدعوة إليها بل أخذ يفرضها فرضاً . ففى المدينة التى تصفها محاورة القوانين سيعتبر عدم الاعتقاد فى وجود الآلهة وفى عنايتهم وفى عدالتهم التى

لا تخطىء ضرباً من الإجرام فى حق الدولة . وسوف يحكم على المذنب بالسجن أو بالإعدام أو بالنفى المؤبد تبعاً لشناعة الإثم الذى يقترفه .

ولكن أفلاطون رفيق بغير المؤمنين الذين سلمت طويتهم وكانت لهم قلوب لا تعرف الزيغ ولا تقرب الظلم . وهو رفيق أيضاً بالسذج ولا يضن بالعفو إلا على المخادعين المتدينين وعلى السياسيين وعلى الدجالين والسفسطائيين والطغاة . وأخيراً يعلن أفلاطون بأعلى صوته أن القوة عاجزة عن أن تفرض الحقيقة إذا لم يعاونها الإقناع بتأييده ، وهو يوقف كتاباً بأكمله من محاورة القوانين هو الكتاب العاشر على النصح والإقناع . ولما لم يكن يتوجه هنا إلى الفلاسفة وحدهم فهو يتحدث عن الآلهة بقدر مايتحدث عن إله واحد ويسوق براهين فى متناول الجميع : كبراهين نظام العالم وإجماع العالمين . ولكنه يفصّل القول فى برهان على درجة من العلم أعلى فضلا عن أنه مؤسس على ظاهرة مرئية : أعنى حركة السماء . كل حركة تفترض وجود محرك وتفترض سلسلة الحركات بأجمعها محركا أعلى . وهذا المحرك لا يتلقى حركته من شىء آخر ، فهو الذى يهب نفسه الحركة . ولما كان كائن واحد هو الذى يستطيع أن يحرك نفسه بنفسه وهو مبدأ لحياة نفسه ومبدأ لتنفس نفسه . فهناك إذن نفس تتولى حركات السماء . وهى لا مادية عاقلة ، خيّرة . وهى قدسية تشمل عنايتها كل شىء وتنتظم كل صغيرة وكبيرة فى العالم المادى وفى العالم الأخلاق فى سبيل الخير العام .

هنالك قطعاً نضال أبدى بين الخير والشر ، وإن الشر ليظهر غالبا بمظهر

الظافر فى الدنيا . ولكن الآلهة يتحالفون فى هذا النضال الذى يحتاج إلى « تيقظ بارع » . ولن نذهب إلى الاعتقاد بأن الآلهة قد يحيدون البتة عن سبل العدالة أو يتسامحون إن دُفع إليهم مال أو تملقهم الأشرار « شأن الكلاب يستهويها لطف الذئاب » . فليس إلى حب الله من سبيل إلا واحدة هى « أن نعمل بكل ما فينا من قوة كى نتشبه به » . وان القصص ليسوق إلينا حديث ملائكة أطهار كانوا فى عهد كرونوس يحكمون بنى الإنسان على نفس النسق الذى كان يحكم به بنو الإنسان الحيوانات المتأخرة عنهم فى الرتبة . ولم يعد الله ينب عنه أولئك الرعاة الأطهار ، ولكن أصبح الجزء الخالد من نفسنا أعنى العقل يصدر عنه . فالقوانين التى يمليها علينا العقل لنتّبعها فى حياتنا العامة وفى حياتنا الخاصة تقتدى بقوانين العناية الإلهية وتنحو مثلها نحو نشر النظام والعدالة فى كل مكان شاخصة إلى الخير الأسمى على الدوام . ألَا إن إطاعة هذه القوانين هى بالنسبة للفرد فى سلوكه فى الحياة وبالنسبة لأولى الأمر فى حكم المدينة القاعدة الوحيدة المأمونة . لأن الله وحده هو الذى ينصب الميزان القسط للأشياء وليس الهوى ولا تعسف بنى الإنسان . وكذلك يكرر أفلاطون فى هذا المؤلف الأخير وهو دستور المفكر ودستور رجل الدولة، ذكر تلك القاعدة التى تلخص مناحى تفكيره الأساسية وهى « اتبع الله ؛ اقتد بالله » . أما العبارة التى يستعيرها من « التراث القديم » كى يتمكن من التعبير عن حضرة الله الشاملة وعن فعل الله غير المرئى فإنها تنطبق تمام الانطباق على فلسفته نفسها : فالله فى فلسفته هو حقًا « البداية والوسط والنهاية » .

حياة أفلاطون بعد وفاته

توفى أفلاطون فى سن الثمانين ، عام ٣٤٧ أثناء ولاية تيوفيلوس . وكان ذلك ، كما يخبرنا قصاصو الحوادث ، « العام الثالث عشر للملك فيليب » إذ أن انتباه التاريخ أخذ يتحول فى تلك اللحظة نحو من سلب المدن اليونانية استقلالها الذى طالما ظلّت غيورة عليه . ولقد انتفعت المدن اليونانية بهذا الاستقلال فى خلق مدنية لا مثيل لها ولكنها استخدمته أيضاً فى أحداث التمزق الداخلى فى حروب أخذت تتجدد على الدوام فأطلق أفلاطون عليها بحق إسم الحروب الأهلية . استمرت هذه الحروب حتى أضنت المتحاربين. وكانت أثينا قد أعلنت الحرب على حلفائها أنفسهم فى اللحظة التى اغتصب فيليب منها مدينة أمبيبوليس عام ٣٥٧ . ثم تلت « الحربُ الدينية الحربَ الاجتماعية » : نشأت عن نزاع يتعلق بقطعة أرض من ممتلكات هيكل دلف فسبّب هذا النزاع انقسام اليونان إلى قسمين وظل هذا الانقسام مستمراً خلال عشر سنوات ابتداء من عام ٣٥٦ حتى عام ٣٤٦ . وقد استخدم فيليب هذا الانقسام فى التقدم بغزواته . وكان قد استولى قبل موت أفلاطون بعدة شهور على مدينة أولينثوس التى أساءت أثينا الدفاع عنها رغم تأنيب ديموستين الشديد . وسوف يصبح سيداً لليونان بعد خرونيه بعشر سنوات .

ولئن كان العصر الذى حياه أفلاطون غنياً بالحوادث فإن حياة أفلاطون نفسها كانت مفتقرة إلى الأحداث . فإذا لم نحكم عليهـــا إلا باعتبار الفوز الخارجى لبدت كما لو كانت حياة مُعْدِمة . ظل أفلاطون حتى الثلاثين تقريباً ينحو نحو تحقيق ما بدى غاية طبيعية له ونحو المشاركة جديا فى السياسـة الأثينية . ولـكن موت سـقراط بيّن له أن كل مجهود للعمل بطريق مباشر مقضى عليه بالفشل . كما فتح هـذا الموت عينا أفلاطون على الإصلاح العقلى والأخلاق ذلك الإصلاح الذى تتطلبه السياسـة المنتجة حقا كشرط متقدم عليها . فقنع بأن يتوارى فى الأكاديمية وأن يعد عن طريق تعاليمه ومحاوراته ، مستقبلا بعيداً غير واضح. ولـكن طالما تمنى أن يسلك طريقا أقصر وأن يصل إلى سلطان يكرس نفوذه للفكرة ويحقق الانقلاب المنشود دون نضال . وقد سنحت له الفرصة أخيراً لأن يحقق مملـكه الإنصاف على هذا النحو . ونعرف كيف استجاب فى سخاء لذلك النداء وكيف تتبع المحاولة فى صلابة وكيف انتهت هـذه المحاولة مع دنيس الأصغر ثم مع ديون الطالب الأمثل ، بفشل محزن . ولم تـكن الصدمات التى انتابت وطنه الخاص حيث عكف على العمل أخف من ذلك وطأة على نفسه ؛ وهو وإن قسى على وطنه إلى حد ما فى بعض الأحيان إلا أنه كان يحبه إلى حد لم يكن ليتحمل معه انهياره .

كان فشل أفلاطون فى الناحية العملية دية لتأثيره على التفكير على مر العصور. فقد أسس مدرسة للعلم السياسى لـكى يكون المستقبل من يتولون إنقاذ المدينة.

ولم يكن ذلك العلم السياسى فى رأيه إلا تطبقا لما كان يسميه العلم السامى أو الفلسفة التى تأتلف فى وحدتها وتتوج جميع العلوم . كانت الأكاديمية إذن مركزا حقيقيا للدراسات العالية وهى أول نموذج لجامعاتنا الحالية وظلت الأكاديمية قائمة حتى القرن السادس بعد ميلاد المسيح . ولم تكن فى ذلك الحين سوى مجتمعا صغيراً للوثنيين منعزلا وسط عالم مسيحى . فأغلقت بأمر من جستنيان عام ٥٢٩ . ولكنها كانت قد كونت عددا كبيراً من أساتذة مدرسة الاسكندرية الكبرى التى نُقلت فى القرن السابع إلى القسطنطينية ، فساعدت فى الامبراطورية البيزنطية على حفظ تراث العلم اليونانى وعلى حفظ الروح الأفلاطونية إلى حد ما .

وكان مجال هذه الروح لأن تحيا خالصة يكون ضعيفا لو أنها انتقلت عن طريق تراث المدارس فحسب . إذ أن من خلفوا أفلاطون مباشرة وهما : أسبيزيبوس وأكسينوقراط قد بدآ فى أضعاف هذه الروح . كما أن الأسماء المبرزة بين سلسلة أساتذة الأكاديمية كانت نادرة جداً . ثم إن أفلاطون الذى نظر إلى التعليم باعتباره تبادل بين نفس وأخرى لم يكن ليثق ثقة تامة إلا فى الكلام الحى . ولم تكن مهنة الكتابة بالنسبة إليه إلا هواية نبيلة ، وما الكتاب إلا كنزاً للذكريات العذبة للمعلم ولتلاميذه . وعلى ذلك فالمحاورات التى كتبها « وهو يلهو » تلك المحاورات التى تفيض بالشعر الرائع وبحرارة فى التفكير لا نظير لها هى بمثابة المتمم الحقيقى لتعاليمه ولعمله . ولم تفتأ المحاورات توجه من أرادت خلقهم أو إصلاحهم من شعراء وفنانين وعلماء ومصلحين

سياسيين حتى خبت ومضتها الدينية والصوفية فى يوم ماوامتصتها ومضة أزكى منها هى ومضة كما ذكر أفلاطون نفسه ، قدسية حقاً .

لم يقصر آباء الكنيسة فى بيان الثغرات ومواضع الضعف التى يحتويها المذهب الأفلاطونى : كتسامحها فى أمر الإشراك بالله وتقليلها من شأن فعل الخلق بأن قالت بالوجود السابق للمادة وزيفها الأخلاق فى الاشتراكية وحين تغاضت تغاضياً أدبياً خطراً عن الحب الكافر . ولكن أنّى لآباء الكنيسة ألا يتلقفوا فى لهفة المساعدة التى قدمتها لهم نظريات أفلاطونية متعددة فى اللحظة التى كانوا ينشدون فيها حليفا لهم فى عملهم أن فى الدفاع أو فى الهجوم ؟.. — ويشير باسكال بهذه العبارة فى مؤلفه «أفكار» حيث يقول «أفلاطون باعتباره ممهداً للمسيحية » . ويقول كل من يوزيب دوكازارى والقديس أوغسطين « أنه أقرب إلينا من أى فرد آخر » . ويقولان كذلك أن « الأفلاطونية دهليز للمسيحية » . ويسر كل من القديس أوستين وكليمان الاسكندرى وأورجين والقديس بازيليوس والقديس جريجورى دونازيانز أن يجدوا لدى أفلاطون هذا التقديس وذلك التبشير بالحقيقة. وخصص له أيوزيب ثلاث كتب برمتها من مؤلفه «تحضيرات فى الإنجيل» وقد استشهد بنصوص من المحاورات بكثرة جداً إلى حد اختفت معه كلماته الخاصة وراء كلماتها .

وجود الله والعناية الإلهية بل وحدس بعقيدة التثليث والخلق وخلود النفس والصراع الأبدى بين البدن والروح وتسخير قوة الدولة لخدمة الدين ، تلك هى الأشياء التى طاب للآباء أن يجدوها لدى أفلاطون . ويذكرون

فى بعض الأحيان أنه إنما اختلس هذه النظريات من موسى ويذكرون فى أحيان أخرى أنه إنما توصل إليها عن طريق معاونة إلهية خاصة . وكيف لايدهشون وفيها من التشابه مايصل إلى حد التشابه فى الأسلوب نفسه ؟ ... فقد طالعوا فى محاورة القوانين القول بأن عدل الله يصل أبداً إلى كل شىء مهما بَعُد «فلن تنجو منه البتة حتى إذا بلغت من الدقة ما يمكنك من النفاذ إلى أقصى غور الأرض أو كنت من العظم بحيث ترتفع إلى أعالى السماء » . وأعجبتهم فى الجمهورية صورة العادل مهضوم الحق المضطهد المعذب . وطاب لهم أن يلاحظوا لدى أفلاطون ولدى القديس بولس معاً « القانونين المتعارضين اللذين يصطرعان فى أعضائنا» . وكذلك حينما تذكر محاورة القوانين وتذكر محاورة تيتاوس من قبلها أن ثمة صراع لا يفنى بين الخير والشر وأن لنا من الله حليفا فى هذا الصراع ، أليس فى ذلك صياغة للفكرة الرئيسية من كتاب « مدينة الله » ... !

لم تعرف العصور الوسطى اللاتينية فى صورة جلية من محاورات أفلاطون إلا محاورة تيماوس وتعليقا على هذه المحاورة لا يوضحها على الإطلاق . إنما عرفوا المذهب عن طريق وساطات شديدة الإختلاط أو عن طريق النقد الأرسطى . ولكن القديس بونافنتورا الذى يعتبر الفلسفة « تصاعداً بالنفس نحو الله » قد احتفظ عن طريق القديس أوغسطين بشىء كثير من الروح الأفلاطونية . ولم تكن هذه الروح معدومة على الإطلاق فى بناء المذهب التوماوى . ومن أعظم من تأثرهم القديس توماس إلى جانب أرسطو ، دنيس الملقب بالأريوباجى

ويأخذ عنه تياراً من الأفكار صادرة بدورها عن منابع أفلاطونية وأفلاطونية محدثة . أما مؤلف بنوزّوجُزّلى « انتصار القديس توماس » فيعبر تعبيراً جيداً حينما يضع أرسطو عن يمين سيد الفلسفة المدرسية وأفلاطون عن يساره ، عن الأثر المشترك وأهمية كل من هاتين القوتين .

إن أهداف المذهب الأفلاطونى أبعد من أن ينالها حد لأنه روح أكثر من أن يكون مذهبا وهو يتحد فى يسر مع كل تفكير يقصد إلى مهاجمته . ولما كان مذهباً مدققاً فى مناهجه ، واضحا منقباً فى عباراته الهامة فقد رحّب بل أثار راغباً النقد والتصحيح إذ يعتبر أن كل علم إنسانى وكل كمال إنسانى شىء لم يصل إلى حد الاكتمال. وكان حب استطلاعه الذى لايعرف النصب يتلطف بكل عمل جديد . وقد سار بطريق فى البحث سديدة نحو أفق سلسلة ونحو مثل أعلى هو على الدوام غير متناه فى السمو عما يحققه الحاضر . ويعرّف هو نفسه بأنه حب لايعرف الارتواء كلما زاد امتلاكه ازدادت رغبته . وهكذا يظل قابلا للتقدم المتصل لأنه يجعل من السماء منزلا للحقيقة العليا ومحلا للخير الأسمى .

فهرس

الموضوع	الصفحة
البيئة العقلية	٣ ـ ٢٣
١ ـ المراض	٣
٢ ـ الأسرة والمدرسة	٦
٣ ـ السفسطائيون	١٠
٤ ـ روح العصر : الروح العملية	١٦
٥ ـ مذهب الشك	١٩
البيئة السياسية	٢٤ ـ ٤٨
١ ـ السياسة الواقعية	٢٤
٢ ـ نكبة صقلية وحكومة الأربعمائة	٣٦
٣ ـ محاورات سقراط	٣٣
٤ ـ ثورات أثينا ومحاكمة سقراط	٤١
تمجيد سقراط	٤٩ ـ ٧٧
١ ـ سنين الترحل والتأمل	٤٩
٢ ـ حقيقة سقراط	٥٥
٣ ـ المحاورات الأولى	٦٠
٤ ـ جورجياس أو العلم الضروري الوحيد	٦٦
٥ ـ الرحلة إلى إيطاليا وتأسيس الأكاديمية	٧١
العلم المثالي	٧٨ ـ ٩٨
١ ـ الحقائق المعقولة	٧٨
٢ ـ الرؤيا السعيدة والوجود السابق	٨٢
٣ ـ الرؤيا السعيدة والخلود	٨٧
٤ ـ أساطير الخلود	٨٩
٥ ـ البراهين العقلية	٩٣
٦ ـ التجلي الروحي	٩٦
العلم الإنساني	٩٩ ـ ١١٤
١ ـ الإحساس والفكر	٩٩
٢ ـ الكهف	١٠٠
٣ ـ مهمة العلوم الرياضية	١٠٤
٤ ـ الحب الفلسفي	١٠٧
٥ ـ تعقب الحقيقة	١١٢
المدينة الفاضلة	١١٥ ـ ١٣٨
١ ـ في الاعتزال وفي العمل	١١٥
٢ ـ خيال وتطرف	١١٩
٣ ـ نحو أحلام أنسب للانسان	١٢٤
٤ ـ مملكة الإنصاف	١٢٧
٥ ـ انحراف وتقهقر	١٣٤
خبرة صقلية ودستور المصلح	١٣٩ ـ ١٦١
١ ـ تنويع طاغية شاب	١٣٩
٢ ـ أفلاطون ودنيس الأصغر	١٤٣
٣ ـ ديون في سراقوزا	١٤٨
٤ ـ مشروع حكومة معتدلة	١٥٢
٥ ـ الأسس الروحية للدولة	١٥٧
حياة أفلاطون بعد وفاته	١٦٢ ـ ١٦٧